تسول لا إرادي

تسول لا إرادي
رواية
فضل مسعود
الإسكندرية : حسناء للنشر
الطبعة الأولى : ٢٠١٧
ISBN 978 -977-6535-97-8
رقم الإيداع : ٢٨٤٨٤ / ٢٠١٧
ديوى : ٨١٣
٢٠٠ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع
٠١٠١٨٨٣١٣٦١
٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

تسول لا إرادي

رواية

فضل مسعود

حسناء للنشر

إهداء

إلى كل أحبائي وقرائي أهديكم روايتي الجديدة تسول لا إرادي وسامحوني أن بدا الاسم غريبًا بعض الشيء على مسامع البعض منكم، لكن عذري أن الغرابة ستزول حتما بمجرد تصفحكم روايتي، كما أرجو أن لا يشغلكم هذا عن مضمون أحداثها وكل مكوناتها ومكنونها، فلربما اخترت هذا الاسم تسول لا إرادي تعاطفا مع شخصية غير محببة أو محبوبة بل مكروهة دومًا وهي شخصية الشحاذ أو المتسول، لكنها في روايتي تلك ربما قد تعاطف الكثيرون معها ومع شحاذها، ولم يكن ذلك التعاطف مرجعه دور الشخصية المحوري في الرواية والأحداث، ولكن لكونها دفعت دفعا إلى التسول رغمًا عن إرادتها وأجبرت على السير في طريق لم يكن أبدًا من ضمن اختياراتها.

كما أرجو أن لا يفهم أحدكم أنني بسردي هذا أبرر اختياراتي للعناوين والأسماء، حيث لم يكن ذلك ولن يكون أبدًا دربي ومسلكي، فالأهم دومًا عندي وكما تعلمون أحبائي وقرائي هو روايتي بكل ما فيها من أحداث ومضامين، وإن كنا لا نغفل أهمية الأسماء والعناوين.

وفي النهاية أرجو وأتمنى لروايتي والتي هي بين أيديكم الآن أن تنال كل رضاكم وتحوز إعجابكم وتقديركم، وتلك هي غايتي ومرادي، بل هي أقصى الأماني وجل ما أصبو إليه وأنشده وفي كل كتاباتي دومًا ودائمًا.

وإلى اللقاء أحبائي وقرائي الأعزاء في رواية جديدة بإذن الله تعالى، مع خالص حبي وتقديري..

المؤلف / د فضل مسعود

تمهيد

في روايتي التي بين يديك (**تسول لا إرادي**) اخترت أن أبدأها بسؤال، كما كان على أيضًا أن أنهيها بتساؤل حتى وإن لم يكن سؤالي وتساؤلي خاصة في ختام الرواية باختياري، وهكذا أضحت كل الأحداث فيها كذا السطور والكلمات محصورة بين علامتي استفهام رغما عني، وهو ما يثبت ويدلل أنني لم أتعمد طرحي هذا، ولم يكن أبدًا في الحسبان سؤالي، فأنا ككاتب من المفترض أن أوضح وأبين وأشرح وأفسر لا أن أستجوب أحبائي وقرائي أو أسأل من يتابع كتاباتي ويقلب في كل صفحاتي وقصاصات أوراقي، لكن ربما تكون هي الصدفة والأقدار أو ما فرضته المواقف والأحداث كما في سؤالي الختامي، وقبل أن نسترسل طويلا وخشية أن نضل الطريق ونتوه في غيابات استرسالي هذا وتأخذنا بعيدًا وتشغلنا كثيرًا دهاليز ومتاهات خروجي المتكررة دون قصد أو تعمد مني والتي تعودتها دومًا وفي كل كتاباتي، لكن ربما لم يعتدها ويتعودها الكثيرون من قرائي، وعندها قد تتبخر كلماتي وتتوارى كل سطوري وفقراتي ويخور السياق رغما عني وتنتحر الأفكار والمعاني، لذا أرى أنه قد وجب علينا أن نطرح دون تأخير سؤالي وهو: **هل حقا تلد المعزة عجلا؟**

سؤال قد يبدو لغزا محيرًا وعجيبًا لكن الإجابة سرعان ما ستعرفها من خلال مجريات وأحداث روايتي، وها أنا هنا أستبق الأحداث مدفوعًا بشغفي وفضولي مع جل إعزازي وتقديري لكل قرائي ومحبيّ وأؤكد أن المعزة قد تلد العجل فعلا!!

وسوف تتأكد قارئي العزيز من صدق قولي وحديثي وتتيقن تمامًا أن هذا ليس زعمًا مني ولم يكن أبدًا ادعاءً أو تجنيًا، ستعرف ذلك كله بمجرد تصفحك لتلك الرواية وقراءة المسطور فيها، لأنك وبكل تأكيد سترى السطور وما بينها تبوح بكل المستور والخفايا، وتفاجئك الكلمات عندما تنطق بالدلائل والبراهين، وعندها لا تندهش كثيرًا فسوف تدرك قطعًا كل المعاني وتستشف بفطرتك غايات الحروف ومرادها، لتتأكد في النهاية من جدية ما زعمته في كل أقوالي وتتضح لك ولكل ذي عين دوافعي وحيثياتي، وما دفعني إليه فضولي لأستبق كل الأحداث وأبوح بالمكنون والمستور.

وأرجو أن لا تذهب بعيدًا بخيالك وأن لا تشطح كثيرًا هنا أو هناك بأفكارك ومخيلاتك وتعتقد أنه ربما بعلوم الجينات وما حدث فيها من تطورات ومستجدات في خلال الآونة الأخيرة قد يحدث ذلك، وربما تقول لنفسك كذلك ما أسهل عمليات استغلال الأرحام في تلك الأيام وما أيسر تأجيرها وزرع البويضات فيها بعد تخصيبها، لذا ليس بمستغرب أن تخرج لنا الأبقار من أرحام الماعز، وقد يكون العكس وتخرج الماعز من أرحام البقر، وعلى نفس المسلك قد تلد الحمير جاموسًا أو تلد الجاموسة حمارًا،

وإياك أن تظن عندها أن ذلك يرفع من قدر لامؤاخذة الحمار! أو يقلل لا سمح الله من قيمة ست الحسن والجمال الجاموسة، فأنا لا أعتقد هذا مطلقا.

وبأي حال من الأحوال فليس هناك أية فروقات تذكر بين ابن الحمار وابن الجاموسة، فهي أن قيلت تكون وفي كلتا الحالتين سبة، بل أن السب أو حتى النعت بابن الجاموسة وفي أحيان كثيرة قد يكون أكثر إيلاما للنفس ربما من ابن الحمار.

لكني أعود إلى موضوع العجل والمعزة لأؤكد مرة أخرى أن ما حدث لا دور للعلم فيه ولا دخل لجيناته ولا علاقة فيه بأرحام وبويضات، لكنه حدث ووقع في زمن الورداني، وفى زمن الورداني لك أن تسر وتبتهج بالذل والمهانة وتقر بالسعادة دومًا والغبطة. وفي كل مجالسه وجلساته أن أسعدك حظك وجالسته، إياك أن يبدو عليك ملامح الضيق أو تظهر علامات الحسرة، وإياك أن تفند صدفة أو قدرًا أو حتى سهوًا ادعاءاته وزيفه الكاذب والسطوة، بل وجب وإن شئت قل لزم عليك أن تمضي سعيدًا وتحيي كل ما رأيته فرحا وتقر وتبصم بالعشرة. وحذارِ من ضجيج يزعجه أو تأوه يؤرق مضجعه، وإياك من همس أو همهمات، فمن المؤكد أنه سيسمعها، وبالطبع لا أسئلة أو تساؤلات، وكيف تسأل أو غيرك وكل الأفواه مكممة؟ فقط لابد أن تؤمن أنه وفي وجوده وحيث يكون توجد كل المعجزات، فهل هناك وبعد كل ما حدث من يشكك في بركات الرجل وينكر كل تلك الكرامات؟

ففي عهده النكتة تقتل! كما يقتل أو ينفى من يلقيها، وإياك أن تعقب أو تبدى اندهاشك من تجريمه للنكتة الملعونة أو من قتل الداعر راويها، وأنبوب الغاز في مخازنه ينقسم في لحظة وبقدرة قادر يصبح أربعة من الأنابيب وكأنه الأنبوب الجامبو المتعافي.

ووفق قانون الباغي وشرعته كل واحدة من الأربعة تصبح أنبوبًا مختوم عليه مكتوب الوزن الصافي.

ويسحل ويضرب من يعترض وجبرًا يشتريها، والحمد لله أن أحدًا لم يعترض مطلقًا في موضوع الأنابيب هذا، إلا واحد ساقه حظه العاثر وأوقعته فيه الصدف والأقدار، وبالقطع سنعرف من هو هذا الواحد لاحقا.

وأم الشحات فاقدة الأهلية البلهاء في نظره امرأة ليست ككل النساء بل لا توجد امرأة في حسنها أو تضاهيها لا لشيء إلا لكونها ابنة شقيقة الورداني، وما أدراك ما الورداني، فذاك فخر ما بعده فخر ويكفيها. وأرجو أن لا تتعجل وتسألني من الورداني؟ وماذا تقصد بالأنبوب؟ ومن الوحيد الذي اعترض على ما فيها؟ وتمضي تشغلني بأم الشحات وبالنكتة وراويها، لأنك حتما ستعرف كل الإجابات بمجرد قراءتك للسطور الأولى من الرواية.

❊ ❊ ❊

١

نشأ عبده الورداني فقيرًا معدمًا، حيث عمل أجيرًا في الحقول والزراعات، ثم ما لبث أن هجر الحقول والغيطان ليعمل عتالا أو حمالا على عربة لنقل الخضار، ولطالما لام الشاب المعدم حينها كثيرًا من أسماه الورداني، حيث يرى أنه لم ينل من اسمه شيئا، فلم يكن هناك وردٌ أبدًا في حياته الأولى ولم تصادفه يومًا روائحه وألوانه، لكنه وبكل تأكيد قد عانى كثيرًا من أشواكه وشكاته وآلامه.

لكن معاناته لم تدم طويلا، فسرعان ما اختفى الرجل وتوارى فجأة ولمدة تقارب العامين ولا يدري أحد من كل أهل القرية أين اختفى، لكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى إلى المشهد، لكنه عاد شخصًا آخر غير الذي قد ذهب، عاد مليونيرًا ومن أغنى الأغنياء وإن شئت قل ملياردیرًا بلغة عصرنا هذا، وكل ذلك في تلك المدة الوجيزة.

وعندما ظهرت أمواله بكل تلك الضخامة وبهذه السرعة ووضحت لكل ذي عين ثرواته وممتلكاته، كان لابد من التساؤلات، وكان حتما أن تملأ الدنيا حينها الشائعات والأقاويل ويكثر الهمس والهمهمات هنا وهناك.

فمنهم من قال إنها المخدرات وآخر يؤكد أنها الآثار والمسخوطات، والبعض أرجع كل ما وصل إليه إلى تجارة السلاح بل كل الممنوعات، وبعضهم شطح بخياله بعيدًا وعاد بنا إلى زمن الدجل والخزعبلات، مدعيا أنه قد أنزل إلى العالم السفلى مخطوفا ليعود بعد عامين بعد أن غافل حراسه من الجان، بل الأدهى أنه قد سطا على كل الكنوزالمخبأة في ذلك العالم الخفي وعاد بها إلى الأرض مرة أخرى، ولكن اقول لمن يدعي ذلك كيف لمخطوف أن يسرق خاطفيه؟ وإن كان من السهل أن يرد الكثيرون على سؤالي هذا بل وينعتوني بالجهل وعدم المعرفة، إذ يبدو لهم أني لا أعرف قدر من اتحدث عنه ومقدرته، لذا تراهم يذكرونني دومًا ودائمًا بأنه الورداني!!

هذا بالرغم من أنني لست ضد الآراء المطروحة والادعاءات الموجودة، وإن كنت بالطبع لا أقر بعض ما فيها، فأنا أعترف أنني لا أنكر هذا ولا أؤيد ذاك، بداية بالمخدرات مرورًا بالآثار والممنوعات وتجارة السلاح، ونهاية بكنوز العالم السفلي وعملية السطو عليها، لكني وما أستطيع أن أؤكده وبكل ثقة ويقين وهذا ليس رأيا شخصيًا لي أو ادعاء وتجنيًا من جانبي أن كل ثروات الرجل وممتلكاته لم تأتِ أبدًا من العتالة أو العمل بالزراعات.

المهم أن الرجل أصبح ذا نفوذ وسطوة، وبعد أن كان بلا جاه أو وجاهة نراه بأمواله وممتلكاته أصبح له عزوته ومريدوه وفي كل الأماكن والمكانات،

ناهيك عن البرستيج والمكانة الاجتماعية التي أصبح يجلس على عرشها متفردًا ومنفردًا لا ينافسه أحد ولا يجرؤ أي من كان على الاقتراب من عرشه ومملكته، على الأقل داخل حدود مديريته أو نطاق محافظته، ولا أبالغ أن قلت أنه قد تعدى تلك الحدود وتخطاها إلى كل المديريات والمحافظات المجاورة.

فأصبح اسمه على كل لسان واعتلى مكانة ما بعدها مكانة، حتى وإن كانت تلك المكانة مزيفة مصنوعة لا أصول ولا جذور لها، لكنه ما كان ليحلم بها في أي يوم من أيامه خاصة أيامه الأولى، حيث كان الفقر أنيسه والعدم جليسه الليل والنهار.

وبالطبع انجذب الكثيرون إليه ممن يسيل لعابهم على كل درهم ودولار، فالرجل يغدق أمواله وبسخاء وبكل العملات السهلة منها والصعبة وفى كل الاتجاهات، ولقد كان طبيعيا أن يشتري كل أصحاب الذمم الخاوية الخربة وكل من لا ضمير له، فأصبح محاطا بجيوش من المرتزقة والمنتفعين وأضحى له معارفه ومحاسيبه وإن شئت قل خدامه من الموالين له والمؤتمرين بأمره، وأضحى تابعوه ومفسدوه في كل زمان ومكان خاصة من يتولون أرقى المناصب ويشغلون أعلى المكانات وأرفعها.

أضف إلى ذلك ما أضافته إليه مصاهرته لشاهين باشا، فقد زادت من ظلمه وجبروته ناهيك عن عنجهيته وغروره وجهالاته غير المبررة، كما زادته تلك المصاهرة صلفا وتعاليًا وأظهرت للقاصي

والداني حجم السادية المتأصلة داخله، وأصبح صهره أو الشاهين هو الداعم الرئيسي أو "السبورت" الدائم الذي يرافقه ويلازمه حيث يكون.

فما أدراك ما هذا الشاهين، أنه رجل له الكلمة العليا والسطوة والنفوذ، يشغل منصبًا مرموقا قد لا يضاهيه أي منصب آخر، وبالطبع سأل لعاب الشاهين عندما رأى أموال وثروات الورداني والتي لا حصر لها، شأنه في ذلك ككل الطامعين والمستغلين، لذا قبل على الفور أن يزوج ابنته الوحيدة من ابن الورداني الوحيد أيضا، بل أن هناك من يقول أن الشاهين هو من سعى مهرولا إلى تلك المصاهرة وبذل كل جهده حتى تتم الزيجة، فقد كانت بالنسبة له هدفا يتمنى الوصول إليه وغاية طالما كان ينشدها وكنزا مفتوحة كل أبوابه على مصراعيها وإن شئت قل منجم ذهب كان يحلم به ويرجوه.

وبصرف النظر عن من سعى أو من قبل كان يتحتم على شاهين وبحكم منصبه وموقعه مساءلة الورداني عن مصادر ثروته ومحاسبته وبموجب قانون من أين لك هذا؟ لا أن يهرول من أجل مصاهرته وإتمام الزيجة طمعًا في أمواله وثرواته.

والغريب أنه لا أحد من كل ما يحيط بالورداني قد سأل نفسه وفي أي يوم من الأيام من أين جاءت للورداني أمواله لأنه من المؤكد أن المصادر لا تعنيهم ولا جدوى من معرفتها،

فهي عند هؤلاء لا تغير من الأمر شيئا، بل أن ما يهمهم حقا ويعنيهم أن الرجل لديه المال والثروة ولا تستغرب قارئي العزيز من تصرفات هؤلاء، فقد غابت ضمائرهم وباعوا ذممهم بل وأنفسهم وبأبخس الأثمان، حتى وإن بدت لهم أبخس الأثمان تلك وكأنها تلال من الأموال والمغانم،

وللإنصاف يجب علينا أن لا ننكر على الورداني ذكاءه الفطري حتى وإن استغل هذا الذكاء في شره وبطشه وجبروته، ويجب أن لا ننسى تفرده في دهائه ومكره حتى وإن كان كل المكر والدهاء في الجرم والإفساد، حقا لقد أضحى الرجل طاغية وطاغوتًا طال بظلمه وشروره الكثيرين خاصة البسطاء من أهل قريته والقرى المجاورة.

لذا تراه دائم الإقامة وأسرته في قصره الكائن بقريته رغم ملكيته للعديد من القصور والفيلات وفى أرقى الاماكن وأجمل المكانات، لكنه لا يفارق قصره هذا إلا في الضرورة القصوى وبالتأكيد في أيام حجه وعمراته المتكررة، ولا تتعجب قارئي العزيز أو تندهش فتلك قد تبدو لك أنها من المتناقضات أو هي الانفصام كما يحدث في بعض الأنماط البشرية وما يعتري الشخصية من تقلبات وتغير في الاتجاهات والسلوكيات، فتارة هنا وتارة أخرى هناك، وذلك كله مرجعه المفاهيم المغلوطة والمتراكمة، بالإضافة للسيكولوجيات والأيدولجيات المتقلبة دومًا ودائما ليكون المنتج والنتاج المعوج مجسما في تلك الشخصية الغريبة المعروفة بالورداني،

فلا يغرك أبدًا تأديته لفريضة الحج وذهابه المتكرر للعمرة، بل أن تلك الفروض والسنن هي بالنسبة له لا تتعدى كونها من الكماليات أو الواجبات الاجتماعية التي يتحتم عليه ومن هم على شاكلته تأديتها حرصا على الوجاهة والبرستيج الاجتماعي، لا يهمه بالقطع كونها مناسك أو تكليفات، وبالطبع لا يعنيه ذلك من قريب أو بعيد.

فالطاغية قد نسي وتناسى أن الدين وقبل كل شيء هو سلوك وتصرفات، وهو العدل والأخلاقيات، وهو الرحمة والعاطفة والعطاء، بل أنه المحبة والإخاء، وهو السمو والترفع والعمل والإخلاص، فأي فريضة حج يؤديها هذا الرجل؟ وأي قبلة يقصدها الطاغية ويأتيها في كل عمراته؟ ومن هو الرحمن الذي ينشده في كل حفلاته الرمضانية أو ما يسميها للرحمن موائد؟ وما جدوى وفائدة كل عمراته وحجاته؟

ولم يكن مكوث الطاغية في قصره بقريته ومسقط رأسه حبًا في أهل بلدته وحرصًا منه على مجاورتهم ليسعد بطلعتهم البهية ومن أجل أن يمتع ناظريه بوجوههم السمحة الطيبة، أو حرصا منه على أن لا يفارق خلانه ورفقاء الصبا والشباب أو سعيًا لتقديم الخدمة والمنفعة لكل محتاج وعويل، فكل ذلك وبكل تأكيد لم يخطر بباله ولم يأت أبدًا بخاطره.

فذلك الرجل قد عاد من أجل إذلال أهل بلدته وأذاقتهم المر والهوان،

لذا تراه قد طغى وتجبر عليهم وحرمهم حتى من قوت يومهم، مع أنه ومن البديهي والمنطقي أن لا يفعل ذلك، فهم ومهما بعدت بينهم المسافات أهله وذووه أو يفترض أن يكونوا كذلك، ولكنه كان يتلذذ دائما بظلمهم ويجد نفسه ويشعر بذاته دومًا في امتهان كرامتهم وسحلهم.

وترى الرجل تنفرج دومًا أساريره وتكون قمة نشوته وحبوره عندما يبطش زبانيته بأحدهم أو يسحلوه ولا يشغله كثيرًا ولا يغير موقفه إذا ما تم قتل المسحول أو حتى تمزيقه إربا، فقمة السعادة والابتهاج أن يرى الناس مطأطئي الرأس منحنين، وبالطبع يسعده أن يرى الذل والانكسار في عيونهم دائما أبدًا.

وأنا لا أرى تبريرًا لأفعاله وفعلاته المشينة تلك حتى وإن كان هناك من يفسر ذلك بأنه ربما يعود لعقدة النشأة والبدايات، فقد عمل أجيرًا ثم حمالا لدى العديد من أهل بلدته ومن جاورها في الأيام الخوالي والأزمنة المنصرمة، لكني لا أجد من بين تلك التفسيرات تفسيرًا يقنعني ويبرر لهذا الطاغية أفعاله وفعلاته، فكم من أناس بدأوا حياتهم ماجورين وحمالين واعتلوا أعلى القمم والمكانات بجهدهم واجتهادهم لا بالطرق الملتوية أو السبل المعيبة أو غير المشروعة كما حدث معه، ومع ذلك لم تتغير أبدًا طبائعهم ولم تتبدل خصالهم وسلوكياتهم بل تراهم دائما أكثر حبًا ووفاءً خاصة لمخدوميهم ومستأجريهم في أيامهم الأولى.

كما تراهم لا يجدون حرجًا من بدايتهم، وهم دائما يفتخرون ويتباهون بما عانوه وقاسوه لأن تلك المعاناة وما واجهوه من متاعب وعقبات في أيامهم الأولى قد جعلت منهم رجالا وصنعتهم رموزًا وكيانات.

لذا لا تقل أن ظلم هذا الطاغية وجبروته خاصة لأهل قريته وكل من جاوره مرجعه الحرمان أو طبيعة النشأة والبدايات أو بسبب ما عاناه الطاغية من اضطهاد وامتهان في أيامه الأولى.

لأنني أجزم وأؤكد أن تلك هي شيمة الساديين متبلدي المشاعر عديمي الإحساس والأحاسيس، وهي طبيعة مصاصي الدماء وعتاة المجرمين، إنها السادية مجسمة وبكل خبثها وسمومها، والتي لم تظهر أعراضها في البدايات ربما لكونها كانت في طور الحضانة وفترة التكوين، شأنها في ذلك كشأن أعتى الفيروسات وأخطرها وأشدها ضراوة على حياة الإنسان.

❋ ❋ ❋

٢

الآن دعنا نتطرق إلى البعض من مآسي هذا الورداني ومظالمه ونرى بأم أعيننا ماذا فعل بخليفة الرجل الطيب والشيخ الوقور وابنه زبادي الشاب الفقير الطموح، ولنرى كيف استولى الطاغية على أموال وكل ممتلكات هذا الشيخ المسكين وولده عنوة وجبرًا وفي وضح النهار أمام أعين الجميع، وأرجوك أن لا تذهب بعيدًا، فما أقصده بأموال خليفة وكل ممتلكاته ورأس ماله ما هو إلا ذلك العجل فهو كل ما يملكه وابنه، والعجل هذا من فصيلة العجول التي يتم تربيتها من أجل لحومها والتي يطلقون عليها الفريزين، وكان خليفة قد اشتراه عجلا صغيرًا بعد فطامه عن أمه مباشرة وبكل ما يملكه من أموال كانت هي كل مدخراته حينها واستمر الرجل وابنه في خدمة العجل والعناية بسيادته لمدة تقارب الثلاث سنوات، وكم اقتطع خليفة وولده من قوتهما ليشتريا للمحروس أعلافه وعليقته، فهو المدلل الوحيد عندهما من الحيوانات بالرغم من أنهما لا يملكان بعد العجل سوى الحمار، وقد كان طبيعيًا أن لا يتم علف الحمار فما الجدوى والمردود العائد عليهما أن تم علف الحمار وتسمينه؟

وإن كان في أيامنا تلك قد يكون هناك عائد مجزٍ من تربية الحمير، والعائد أو المردود ليس بالطبع أن تمتطيها وتركبها، وإنما العائد والمردود من بيع لحومها.

لذا ليس غريبًا ولا مستغربًا أن تعلف الحمير ويعتنى بها ليتم ذبحها وبيعها من خلال جزارين ماتت ضمائرهم وامتلأت قلوبهم بالجشع والطمع، وها هي الجرائد والمجلات تطالعنا بين الحين والآخر بالقبض على جزارين يذبحون الحمير ويبيعون لحومها على أنها لحوم بقرية.

ترى كم أكلنا ياترى من لحوم تلك الحمير؟ من وجهة نظري لا أظن أننا قد أكلنا كثيرًا، فحتي الآن لم ترتقِ ظاهرة الرفس في شوارعنا والحمد لله لأن تكون ظاهرة تستحق الدراسة، وربما قد طغت عليها ظاهرة التحرش والتي انتشرت مؤخرًا وذاع سيطها ووضعتنا في مركز متقدم في الترتيب على مستوى العالم وعلى حد علمي أن لم يكن الأول فمن المؤكد أنه الثاني، لكن كيف طغت ظاهرة التحرش على ظاهرة الرفس وغطت تمامًا عليها؟ ولنسمع الجواب من بعض الخبثاء حيث يقولون أن المتحرش قد لا يكون لديه الوقت للرفس أو التشليط لانشغاله بما هو أهم بالنسبة له!!

لكن ولله الحمد وحتى الساعة لم يسمع النهيق إلا فيما ندر، لكني أخشى أن يأتي اليوم ونسمعه في كل الميادين وعلى النواصي وفي الشوارع والطرقات، وحينها لابد أن نحمد الله ونشكره، فلرب ضارة نافعة لأنه من المؤكد حينئذ أن تكون ظاهرة التحرش قد انتهت تمامًا.

ولكن دعنا لا نخرج عن سياق روايتنا ونعود لعجل خليفة، فقد امتلأ العجل لحمًا واكتظ شحمًا وحان ميعاد قطافه أو بيعه ليجني خليفة وابنه حصاد جهدهما واجتهادهما طوال ثلاث سنوات، ولقد تم الترتيب والتخطيط بين خليفة وزبادي بأنه سيتم تخصيص كل عائد بيع ذلك العجل من أجل إتمام زواج زبادي، لكن هل فعلا سيبيع خليفة عجله؟ والذي طالما حلم بيوم بيعه والإمساك بمبلغ من المال ربما هو الأكبر في حياته يفي ويكفي زواج زبادي وكل التزاماته.

وهل سيتزوج بالفعل زبادي؟ هذا ما سنراه من خلال السطور القليلة التالية، لكن ما أستطيع قوله أن العجل لن يباع وإن زبادي سيتزوج لكن كيف وأين ومتى؟ دعونا لا نستبق الأحداث في هذه المرة وننظر ونرى.

فها هو الطاغية يجلس في شرفة قصره، وما أدراك ما قصره وشرفته، أنه يضاهى قصور أغنى الملوك والنبلاء وإن شئت قل أنه قصر الأحلام أو كما قصور ألف ليلة وليلة، يجلس فيه شهريار المعروف بالورداني وإن فاق شهريار ظلما وبطشا، فالأخير كان لا يقتل غير النساء أن قتل، لكن الورداني يقتل حتى الأطفال، وشهريار ربما كان يسمع ممن يقتلهم الحكايات أو الحداويت كما يسمونها، لكن الورداني كل ضحياه وقتلاه ماتوا مكممي الأفواه لم تسمع منهم حتى صرخاتهم أو تأوهاتهم، ولكن يبقى الفارق الأهم،

فشهريار وكل ألف ليلة وليلة ما هي إلا خيال في خيال، أما الورداني فهو الحقيقة المرة والواقع الأليم.

جلس الطاغية يحيطه العديد من مريديه والمسبحين بحمده والمنتفعين وأصحاب المصالح والمرائين، بالإضافة لبعض منافقيه، وأقول بعضهم لا كلهم حيث إنهم كثر لا حصر لهم، وربما لا يتسع القصر رغم سعته واتساعه لمجلسهم، وربما يكون الورداني قد مل وجوههم من تكرار وجودهم أمام عينيه ليل نهار، لكنهم وبالقطع لا يملون مجالسته فقد جبلوا على هذا وتربوا عليه.

لكن يبقى فتاوي هو المقرب إلى قلب الورداني، وإن كان الورداني لا قلب له وبكل يقين وتأكيد، فهو الصديق والرفيق الدائم يلازمه ليله ونهاره ويشاع أن فتاوي هذا أزهري الأصل تخرج من إحدى جامعاته، أقصد جامعات الأزهر، ويقال أنه عمل واعظًا وإمامًا قبل أن يتقلد منصبه الأخير، والذي أضحى فيه ذراعًا من أذرع ذلك الطاغية والجبروت الورداني، لتنتهي إلى الأبد أزهريته ويفقد كل كينونته وآدميته بعد أن باع نفسه للشيطان وأصبح ذلك جليًا واضحًا في كل سلوكه وتصرفاته.

كما أنه ليس غريبًا أن تجد العديد من الأبضيات والبودي جاردات بكل أنحاء القصر، فتراهم هنا وهناك داخل القصر وخارجه وفي كل المسالك والطرقات ناهيك عن العيون المنتشرة والحراس.

وأثناء جلوس الطاغية إذا بهرج ومرج خارج جدران القصر، ولم تمر سوى بضع ثوانٍ حتى أتاه أحد حراسه ومال عليه هامسًا، فقهقه

الطاغية بصوت عالٍ وقال لحارسه: أحضرهم هنا فإننا في أمس الحاجة للتسلية والترفيه.

عندها سأله فتاوي: ما الأمر يا باشا؟ ضحّكنا معاك. فرد الورداني عليه وهو مازال يقهقه سعيدًا قائلا: هتشوف بنفسك يا فتاوي. وعليه يقهقه فتاوي هو الآخر رغم عدم إلمامه بما يحدث وجهله بالسبب الذي من أجله انفرجت أسارير هذا الورداني فجأة، لكنه النفاق من هذا الأفاق والمجاملة والرياء.

وفجأة يدخل عمدة البلدة عبده الفسخاني ومعه خليفة والد زبادي داخل القصر يحيطهم حراس الطاغية وبودي جارداته، لكنهما لم يصعدا الدرج المؤدي للفرانده أو شرفة القصر، حيث لم يأذن لهما الطاغية بالطبع بالصعود إمعانا في ذلهما، فقد تعود أن يكون كذلك مع كل من يأتيه خاصة أهل قريته والقرى المحيطة بحيث تكون قدماه أعلى من رأس من يحادثه، حتى إذا تكلم الناس لابد أن يرفعوا رؤوسهم لأعلى، وذلك ينم عن غروره وصلفه وازدرائه لكل الناس، وإن شئت قل إنها الخسة والنذالة.

لكنه أشار لحراسه ومن مكانه العالي بتركهم، ثم بادر قائلا: خير يا عمدة في إيه؟ ومين الجعر اللي معاك ده؟ فرد العمدة من مكانه في أسفل الفرانده وبالطبع رافعًا بصره إلى أعلى قائلا: دا خليفة معاليك، الظاهر أن الراجل كبر سنه وخرف، فجاني معاليك وهو بيدعي أن حد من حراسك ومن ورا ضهر معاليك طبعا أخد منه عجله، وقال إيه كمان أن العجل موجود ومربوط ورا قصر

سعادتك يا وردانى بك وفى الحتة اللى جنب عشة صالح. فيرد الورداني: إيه لعب العيال ده يا عمدة؟ عِجل إيه وهباب إيه يا جعر انت وهو؟ وع العموم أنا باديك الإذن روح شوف بنفسك وخد الجعر الشايب دا معاك وتعالى قل لي شفت إيه؟

وعليه ينصرفان مهرولين العمدة يليه خليفة، ساعتها كان لابد أن يتدخل فتاوي قائلا: بلاش العاطفة والرخاوة مع الأشكال دي معاليك، دول ماينفعش معاهم كده، دي ماركة معروف ديتها معاليك. فيرد الورداني: اصبر يا فتاوي ماتستعجلش على رزقك، أنا عارف اللي في دماغك، وهعملك أكتر منه.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى يعود العمدة وخليفة، فيبادر الورداني: خير يا عمدة؟ لقيت إيه؟ فيرد العمدة: لقيت عجل لحم ما شاء الله سمين قوى لونه اسود، بيقول خليفة قصدي بيدعي خليفة أنه عجله. فيقول الورداني: لا يا فسخانى، العجل ده بتاعنا ومولود عندنا وأمه موجودة تشهد على اللي أنا بقوله، مع أن الحكاية مش محتاجة شهادة من حد، وأكيد يا عمدة شفتها وهي مربوطة جنب ابنها. فيرد خليفة: إزاي بتاعكم ومولود عندكم كمان! وكمان أمه مربوطة جنبه، فين بقى أمه دي؟

فيرد الورداني قائلا: معقول يا عمدة انت بقيت أعمى للدرجة دي؟ إزاي ماشفتش أم العجل جنب العجل مربوطة؟ ثم يواصل الورداني تهكمه على العمدة قائلا: بص يا فسخانى، أبو بالين كداب، فاخترلك واحدة يا عمدة يا فسخاني، واتهيألي التانية

أنفعلك. فيرد العمدة مرتعدا: معلش معاليك إحنا مشفناش حاجة مربوطة جنب العجل غير معزة. فيرد الورداني متهكمًا: ماهي دي أم العجل يا فسخاني، الحمد لله إنك لسه بتشوف، ولا هتكدبني؟ فيرد العمدة قائلا: ما عاش اللى يكدب معاليك، أيوه كده أنا فهمت، وكان نفسي أتأكد وتأكدت. فيرد الورداني: الحمد لله إنك فهمت واتأكدت. ويواصل الورداني قائلا: على فكرة انت بقيت تفهم متأخر قوي اليومين دول، وساعات كتيرة مابتشوفش يا عمدة ودا مش كويس علشاتك.

فيرد خليفة مندهشًا مستغربًا: معزة أم العجل؟ فيه كده؟ وإزاي تيجي يا ناس؟ فيأمره العمدة بالسكوت، لكن خليفة ما يلبث أن يقول: طب ماشي خلينا نصدق أن المعزة أم العجل! طب العجل بتاعي لونه اسود والمعزة بيضا، إزاي تيجي دي يا هوه؟

فيرد فتاوي قائلاً: لخليفة: طالما انت عارف أن المعزة أم العجل، يبقى خلاص انتهينا، ليه بقى حكاية أبيض واسود دي؟ انت عارف اللي انت بتقوله ده اسمه إيه؟ دا اسمه خوض في الأعراض يا طحش وانت عارف اللي يخوض في أعراض ولا يسيء لعجل ولا معزة أفندينا يحصله إيه. فيرد خليفة منفعلا: هو خلاص عجلي بقى عجله والمعزة بتاعة نبوية المسكينة بقت معزته؟ وكمان نال المعزة الشرف وبقت أم العجل، وإن قلت إزاي دا المعزة بيضا والعجل اسود يبقى خوض في الأعراض؟!

فيقاطع فتاوي خليفة قائلا: كتر خير معاليه اللي لسه صابر عليك لحد دلوقتي. فيرد خليفة قائلا: هو فيه كده في الدنيا يا ناس؟ حرام عليكم. وينادي على فتاوي قائلا: قل كلمة حق يا خي، هي فيه معزة تولد عجل يا فتاوي؟ قل كلمة حق مرة واحدة ف حياتك.

وعندها يقول الورداني متهكمًا: فهمه يا فتاوي إزاي المعزة تولد عجل. وعندها ينبري فتاوي قائلا: انت مفكر يا بني آدم أن معزة الورداني بيه أي معزة؟! ولا عجله أي عجل؟ هو ياوله كلب أهل الكهف زي أي كلب؟ ولا عجل إبراهيم عليه السلام زي أي عجل؟ ولا ناقة صالح زي أي ناقة والسلام؟ فيقاطعه الورداني: بلاش سيرة صالح.

فيرد فتاوي: يا أفندينا أنا قصدي صالح النبي مش صالح الغبي جارك اللي لا عنده ناقة ولا حتى دجاجة، داهما يادوب جوزين حمام عمي ولو طاروا منه هيبقى من غير جوز.

ثم يواصل فتاوي كلامه لخليفة قائلا: يا بني آدم معزة الورداني بيه لو الظروف لطشت معاها وماكانتش حامل حتى من أساسه أقل حاجة تولدها عجل، لكن اللي زيك لو بقرته أو جاموسته عشر وأسعده حظه وولدت له أرنب وللا فار حتى يحمد ربه ويبوس إيده وش وضهر.

ويواصل فتاوي: كل برغوت على قد دمه يا طحش، ولاهي خلاص الروس اتساوت والدنيا جابت آخرها، نفسي تشغلوا دماغكم اللي

ملهاش لازمة على جتتكم اللي عاملة زي كياس القطن ولا غراير البدنجان الاسود، جاتكم داهية في مناظركم.

وعندها يقاطع خليفة فتاوي ويحاول أن يتمالك أعصابه ويسيطر على اندهاشه واستغرابه ويقول له: نفترض أن العجل ياشيخ فتاوي ابن المعزة، خليني أصدقك وماشى يا شيخنا يا جليل، مش مهم بقى أمه معزة أمه كلبة، لكن الأكيد أنه عجلي أنا وعندي ألف شاهد على كده. فيرد فتاوي ناهرًا خليفة: بلاش الجهل ده، ما فيه ألوف مؤلفة شبه عجلك، تبقي على كده بتاعتك؟ ياراجل يا جاهل يا إمعة، بلاش تجادل كده زي بني إسرائيل لما قالوا أن البقر تشابه علينا، بلاش أحسن ربنا يسخطك أكتر ما انت مسخوط.

ويواصل فتاوي: حرام عليكم كلامكم الفارغ ده وجدلكم اللي ملوش لازمة واللي هيودينا في داهية، خلاص البيه قالك مش عجلك وانه ابن المعزة يبقى ابن المعزة، اتكل على الله انت وهو قبل معاليه ما ينفد صبره. وقبل أن يرد خليفة مرة أخرى يتأبطه العمدة خارجًا.

لكن خليفة أثناء خروجه يردد بصوت عالٍ: منكم لله يا حرامية يا لصوص، سرقتوا عجلي وكمان خلتوه ابن معزة نبوية اللي انتوا سارقينها من الولية الغلبانة يا ظلمة، منكم لله يا ظلمة، أخدتم عجلي اللي كنت باسمن فيه عشان أجوز بيه الولد اللي ماحلتيش من الدنيا غيره، منكم لله يا ظلمة.

ويبدو أن الورداني بعد أن سمع خليفة وسبه له ونعته بالحرامي واللص قد أضمر شيئا ما لخليفة، وعندها نادى العمدة، فاستدار العمدة مسرعًا وهرول إليه وتحدث معه الطاغية لمدة ثوانٍ معدودة، ثم عاد العمدة ليضع يده على فم خليفة ويخرج به مسرعًا، لكن خليفة مازال يردد ويكلم نفسه: معزة تولد عجل يا ناس؟! وكمان المعزة بيضا والعجل اسود؟! فيرد العمدة: أيوه تولد عجل يا خليفة، ومادام صدقنا إنها تولد عجل يبقى هيفرق معانا لونها ولا لونه في إيه؟

ولقد كان بإمكان الورداني أن يشترى ألف عجل ومليون معزة أن أراد دون الحاجة للسطو على عجل خليفة وسلبه إياه عيانا جهارًا أو أخذ معزة نبوية المسكينة قوة واقتدارًا، لكنه وكما أشرنا يريد إذلال الناس وقهرهم، فقمة سعادته ليست بالطبع السطو على العجل أو المعزة، ولكن تكمن في رؤيته للحسرة والانكسار والمهانة في عيون مالكيها وأصحابها.

ويواصل العمدة حديثه مع خليفة وابنه عقب خروجهم قائلاً: بص يا خليفة وقدام ابنك أهو أنا هسألك سؤال واحد وعايزك تجاوبني عليه بصراحة. فيرد خليفة: سؤال إيه يا عمدة؟ هي عاد فيها أسئلة لسة؟! فيقول العمدة: حياتك الأغلي وحياة ابنك ولا حياة العجل؟ فيرد: وهي دي عايزة سؤال يا عمدة؟ طبعا حياة ابني وحياتي.

فيرد العمدة: يبقى خلاص خلصنا وانتهي الموضوع، وماتقلبش فيه ولازم تصدق أن المعزة تولد عجل عشان لو ماصدقتش أو

ماقتنعتش بكده يبقى التمن هيكون غالي ومش عاوز أوضحلك أكتر من كده يا خليفة، وكمان أنا مش عايزك في البلد خالص.

ثم يوجه العمدة حديثه لزبادي قائلاً: فاكر الاسطى فتوح الله يمسيه بالخير أن كان عايش والله يرحمه أن كان مات؟ فيرد زبادي قائلاً: والله أنا كنت صغير أيامها لكن عارف أن الورداني طرده هو وعياله عيد ونجية. فيرد العمدة: أنا هاحكيلك عمل فيه إيه، المفتري عشان قال نكتة لأخوه بهلول وهو بيحلقله فضحك بهلول من النكتة واستمر يضحك بهستريا حتى سقط ميتا أمام العديد من أهل البلد.

فما كان من الظالم المفتري إلا ولابد من قتل فتوح، ولكن يبدو أن زبانيته قد أشاروا عليه أن لا يقتله قائلين أن قتلته فقد ارتاح لكن أن أخرجته من البلد هو وعياله بس بهدومهم اللي عليهم وخدت دارهم ودكانهم يبقى كده هيتعب هو وعياله طول العمر وهيموتوا من الفقر والجوع، وبدل ما تموتهم مرة واحدة هم هيموتوا كل يوم مرة ولا اتنين ومن غير ماتطلع روحهم.

وبالفعل أخرج الرجل وأطفاله الصغار وتوعدهم بالقتل أن عادوا، وعلى فكرة يا زبادي بهلول أخوه كان رجل طيب وكان دايما يقول على الورداني أنه ظالم وأمواله كلها حرام وياما الورداني كان بيخطط للخلاص منه وكان على وشك أن يقتله لولا أن الرجل مات موتة ربنا قبل قتله.

ويومها فرح الظالم بموت بهلول كثيرًا؛ فقد كان كابوسًا جاثمًا على صدره، ولكنه كالعادة استغل الظروف ليذل الناس ويكسرهم.

واوعي يا خليفة تكون نسيت السيد أبوعويس وللا خميس الغمري لما اعترضوا على حرق جرنهم إيه اللي حصلهم الله يرحمهم، وللا لبيبة المسكينة، وأبوحسين وحكاية الغاز وغيرها وغيرها، ياللا بينا ياللا.

لكن وبمجرد خروج العمدة وخليفة تخطر لفتاوي فكرة شيطانية، ذلك الرجل الذي باع نفسه للشيطان وبأبخس الأثمان، ذلك الرجل الذي خان أهل بلده وخان الأمانة مازال مستمرًا في ظلمه وبهتانه، يعيش كأنه المطية التي يستقلها الورداني ومن خلالها يصل الطاغية إلى مبتغاه ويحقق أهدافه الدنيئة.

لا يهمه دين ولا كرامة ولا يشغله سوى جمع حفنة من الجنيهات، حتى وإن كانت تلك الجنيهات ملطخة بدماء أهل بلدته من البسطاء والغلابة.

❊ ❊ ❊

٣

ولنرَ هذا الفتاوي وهو يميل على الورداني هامسًا بفكرته قائلاً: اسمع يا باشا، أنا عندي فكرة جهنمية هتريحك كتير. فيرد الورداني: فكرة إيه يا فتاوي؟ وتريحني إيه؟ انت مفكر أن أنا مش مستريح وللا إيه؟ جرالك إيه يا فتاوي؟ فيرد فتاوي: مش دا القصد معاليك. أومال إيه القصد يا فتاوي؟

فيرد فتاوي: مش معاليك ليك بنت أختك لامؤاخذة العبيطة أم الشحات؟! فيقاطع الورداني: ليه بتفكرني بيها الله ياخدها، دانا ياما حاولت أخلص منها، لكن أمها هي اللي واقفالى زي اللقمة في الزور. فيقاطع فتاوي: واللي يخلصك منها من غير أي مشاكل ولا دياولو، وكمان نفرح أمها وتنبسط؟ فيقاطع الورداني: عليا بيها وبسرعة. فيرد فتاوي: اسمعنى معاليك، سعادتك مش سمعت الراجل المتخلف اللي اسمه خليفة وهو بيقول أنه كان مربي العجل عشان يجوز المحروس ابنه؟ ماحنا نحلله مشكلة ابنه ومشكلتنا ونجوزله أم الشحات. وعندها تنفرج أسارير الورداني ويقهقه بصوت عالٍ قائلاً: يخرب بيت شيطانك يا فتاوي، شيطانك إيه؟ دا انت الشيطان نفسه. وعليه يأمر الورداني أبضياته بأن يأتوه بالعمدة وخليفة وزبادي حالا.

ثم يواصل الورداني حديثه مبتسمًا سعيدًا مع فتاوي قائلاً: دي فكرة ماتخرش المية زى فكرتك بتاعة زمان لما خلصنا من بهلول وشالها فتوح وطردناه هو وعياله، لكن فكرتك المرة دى أنقح يا فتاوي، ابن خليفة هيخلصنا من أم الشحات، بس إحنا وكرمًا منا مش هنطرده، ونطرده ليه؟ كفاية عليه أم الشحات. ويواصل الورداني: بس الموضوع بتاعه هنفذه حتى بعد الولا ما يتجوز أم الشحات. فيرد فتاوي قائلاً: دي نقرة ودي نقرة، اللي حصل من خليفة الجعر ده يستاهل عليه قطع رقبته ورقبة ابنه.

فيرد الورداني: م هو ده اللي هيكون بس بدل رقبته هتكون رقبة ابنه وبس وقدامه. فيقاطع فتاوي قائلاً: بس أنا عايز معاليك تأخر موضوع قطع رقبة زبادي لبعد الفرح حتى لحد الصباحية عشان مانكسرش بخاطر بنت أخت معاليك أم الشحات.

وعندما يعود العمدة وخليفة وزبادي والذين لم يكونوا قد ابتعدوا كثيرا عن القصر، حيث يبادر خليفة قائلاً: خير باعتلنا تاني ليه؟ تكونش ناوي تربطنا ورا قصرك وتقول بتوعي وولاد الوزة بتاعة جنابك زي حكاية العجل والمعزة؟ فيضحك الورداني ويبتسم على غير عادته ويقول موجهًا كلامه للثلاثة: أربطكم إيه يا خليفة؟ دا انت والعمدة مربوطين خلقة ومن زمان قوي، هو انتم ناقصين ربط؟ وبعدين هقول عليكم بتوعي على إيه؟ دانتوا مافيكوش فايدة لا انت ولا العمدة، ياريت حد فيكم ينفع يكون عجل ولا حتى معزة على الأقل يبقى فيه فايدة لو اندبحتوا.

وبعدين مش هقول يا خليفة إنكم ولاد الوزة، عارف ليه؟ عشان بصراحة ماعنديش وزة وماينفعش أكدب، مش كده ياعمدة؟ هو أنا قلت هقتل فلان وماقتلتوش؟ قلت هولع في فلان وماولعتش؟ فيرد العمدة: بصراحة عمرك ما قلت على حاجة وماعملتهاش. فيقاطع الورداني: عرفت يا عمدة إني مابكدبش؟ إزاي أقول عندي وز وأنا ماعنديش؟

لكن لوعندى وزة من المؤكد إنها مش هتخلف أمثالكم، دا انتم التلاتة ماتسووش نكله هنيل بيكم إيه؟ فيقاطع فتاوي قائلاً: بعد إذن أفندينا. ويوجه كلامه للثلاثة قائلاً: انتم ليه كده سيئين الظن ومتسربعين؟ نضفوا ضمايركم يا غجر، وبعدين طرتقولي ودانكم واسمعونى، الورداني بيه وبطيبته وبقلبه الحنين صعب عليه خليفة لما سمعه بيقول كنت مربي العجل عشان أجوز بيه الولد، عشان كده قرر أنه يجوز له الولد على حسابه ويتكفل بفرحه وعرسه وكل لوازمه.

فيرد العمدة: الله يخليه ويباركله، أنا كنت عارف أن قلبه طيب وجواه إنسان. ويقاطع خليفة: أنا مش فاهم حاجة من اللي بيحصل. فيواصل فتاوي قائلاً: إيه رأيك يا خليفة؟ وقبل أن ينطق خليفة يكمل فتاوي قائلاً: يعني لو فرضنا جدلا ولو هنا تفيد الامتناع أن ادعاءك الكاذب بإن العجل اللي ورا سور قصر الباشا بتاعك، ورحت ووديته السوق وبعته وبأعلى تمن، يا ترى تمنه كان هيكفي تخطب لابنك وتجهزه وتجوزه؟ أكيد ماكانش هيكفي حاجة

وكنت هتضطر تبيع حمارك ودارك كمان، وبلاش نفسك عشان انت ماتساويش حاجة، وبرضو مش هيكفي.

عشان كده أنا عايزكم تدعوا للورداني بيه الراجل اللي كله رحمة وورع وبيدور دايما على مصالحكم، لكن انتم للأسف أجلاف مابتفهموش. ويواصل فتاوي: هو ده العريس اللي معاكم؟ فيرد العمدة وخليفة: أيوه هو ده زبادي. فيقول فتاوي: وعشان زبادي الأمور ده فيه مفاجأة هتخليكم ترفعوا راسكم في السما وماحدش يقدر يدوس لكم على طرف وهتبقوا من علية القوم كمان. فيرد العمدة: إيه هي المفاجأة يا شيخ فتاوي؟ شوقتنا يا شيخ. فيرد فتاوي: المفاجأة إنهم هيناسبوا الورداني بيه. وعندها يهمس زبادي لنفسه: هو الورداني عنده بنات؟ دا مفيش غيره وابنه. وكذلك يسأل خليفة متلجلجًا: هو ابني هيتجوز مين؟ فيجيب فتاوي: هيتجوز بنت أخت الباشا بتاعنا لزم. فيرد ثلاثتهم معًا تملأهم الدهشة والاستغراب وفي صوت واحد: أم الشحات!!

فيجيب الورداني: أيوه أم الشحات، حضروا نفسكم خلينا نخلص ومع السلامة. فيصمت العمدة ويصرخ خليفة قائلاً: دي هبلة، دي فاقدة الأهلية. فيرد فتاوي بسرعة: أنا عارف أن الورداني بيه هيعتبر نفسه ماسمعش حاجة من سبك وشتيمتك يا خليفة لأقرب الناس ليه، لأنك راجل كبير وخرفت، وبعدين برضو هعيد وأكرر تاني، الهبلة وبنت أخت أفندينا تبقى أعقل من أي حرمة في بلدكم كلها يا غجر. فيرد خليفة: هو أنا بس اللي بقول إنها كده؟

ماهي كل الدنيا عارفة ده. وعندها يقاطع زبادي قائلاً: ياعم الورداني بيه، يا عم فتاوي أرجو أن تسمعوني.

فيرد الورداني: خلصنا قدامك نص دقيقة. فيقول زبادي: أبويا كبر وخرف وزي ما قال عمي فتاوي عنه، لكن الحكاية اللي عاوز أقولها وبتأسف لكم عشان حصلت من غير قصد، أن إحنا لا راح مننا عجل ولا حتى عمرنا ربينا عجول، دانا أول مرة أسمع فيها حكاية العجل دي من أبويا النهاردة، أكيد العجل اللي بيقول عليه أبويا ده تهيؤات مش حقيقة، داحنا كل اللي نملكه حمار وكمان شركة مع عمي عبده عويس، هو بياخده يومين وإحنا يومين.

ويواصل زبادي: إحنا آسفين ع اللي حصل وآسفين على إزعاج معالي عمي الورداني بيه، ومنك لله يابا أسأت للناس الكُمّل وأزعجتهم بقصة مالهاش أساس من أصله. ثم ينظر زبادي إلى أبيه والعمدة قائلاً: ياللا بينا يابا ويالللا ياعمدة. وقبل أن يستديروا ويهموا بالخروج يرد الورداني قائلاً: على فين ياولا؟ هو دخول الحمام زي خروجه؟ ياجعر يابن الجعر. وعليه وفي ثواني قليلة يحيطهم الحراس من كل مكان، فيرد فتاوي متهكمًا ساخرًا موجهًا كلامه للثلاثة: هو انتم مش عاجبكم تناسبوا الورداني بيه؟ يا داهية سودة يا ولاد. هية الدنيا جابت آخرها؟ وديتوا نفسكم في داهية يا بهايم من غير ديول. فيرد العمدة: مين قال الكلام ده يا فتاوي بيه؟ إحنا ماقلناش حاجة، مش كده يا خليفة؟ لكن خليفة يصمت ولا ينطق بكلمة،

فيوجه العمدة كلامه مرتجفا لزبادي قائلاً: مش كده يا واد يا زبادي؟ فيرد زبادي سريعًا: أيوه يا عمدة. فيقول العمدة: كل اللى كان زبادي يقصده أنه شايف نفسه قليل يعني مش قد المقام، فينه هو وفين أم الشحات بنت الأصول والحسب والنسب؟ وكفاية عليه قوي أن خالها وولي أمرها الورداني بيه، دا البلد كلها هتحسده عليها، وكمان خليفة المسكين من حلاوة المفاجأة جاله ذهول. وعندها يقاطع زبادي متلعثمًا قائلاً: اللي بيقول عليه العمدة هو الحقيقة، أنا كان قصدي بس ياخدوا رأي العروسة أحسن، يمكن ماتوافقش على جربوع وجعر زيي لا عنده بيت ولا غيط ولا زريبة. فيقاطع الورداني وبحدة: خلاص هي موافقة وبكرة الفرح يالا غوروا من هنا.

ويكمل الورداني قائلاً: بس على فكرة قبل ما تمشوا من غير مطرود فيه مفاجأة لزبادي الأمور ده جوز بنت أختي بعد الفرح على طول، بس شرطها إنها تكون قدام خليفة أبوه. ثم يواصل الورداني قائلاً: وانت عارف يا عمدة إني لما أقول بانفذ على طول. فيرد العمدة متلعثمًا قائلاً: أيوه عارف يا معالي الباشا، يالا يا خليفة يالا يازبادي. ويهرول الثلاثة إلى خارج قصر الطاغية.

وبالطبع يدرك الورداني تمامًا عدم أهلية ابنة أخته وتخلفها العقلي والذهني ويعي أن أمثالها مكانهن المستشفيات النفسية من أجل العناية والعلاج لا بيوت الزوجية حيث السكنى والمشاركة والمسؤولية، لكنه يريد أن يذلهم ويكسرهم أكثر مما هم فيه، وحتى

لو كان على حساب المسكينة فاقدة الأهلية أم الشحات، وذلك إمعانا في التجبر والتسلط والنرجسية كما أشرنا في موضوع العجل، حتى وإن جاءته فكرة الزواج من فتاوي، وبالطبع فتاوي على نفس شاكلته وربما قد يكون أكثر جبروتا وتسلطًا أن واتته الفرصة، وكما نعلم يقينا أن الطيور على أشكالها تقع والمرء دومًا على دين خليله.

وبعد أن يخرج الثلاثة العمدة وخليفة وزبادي مذهولين غير مصدقين لما حدث، ويتأبط زبادي والده ويبوس رأسه ويقول:

- سامحني يابا على اللي حصل وكلامي البايخ معاك.

فيرد خليفة: انت يابنى اللي لازم تسامحني، أنا اللي عملت فيك العملة السودة دي. فيقاطع العمدة: لا انت ولا هو ولا أنا، إحنا التلاتة مالناش ذنب في حاجة من اللي حصل، أنا جيت معاك يا خليفة عشان انت صاحبي وأخويا، لكن للأسف ماقدرتش أعمل لك حاجة ولا حتى لنفسي، أنا مش عمدة أنا خيال مآتة ويمكن أقل كمان؛ لأن خيال المآتة على الأقل له فايدة بيحرس الغيط ويخوف العصافير عشان ماتاكلش الزرع، لكن أنا وفي وجود المفتري الظالم ده لا عاد أنفع أحرس غيط ولا أطير عصافير، صحيح أنا عارف أنه في ثانية ممكن يشيلني، دا بتلفون صغير بيشيل اللي جابني عمدة، يبقى أنا هعصى عليه؟ لكن ده والله ما هو السبب اللي مخلينى راضي بإنى أكون عمدة واتحمل كل اللي بيحصل ده، السبب إني عارف ومتأكد أن العمدة اللي هيجيبه

هيكون سيف جديد من سيوفه على رقاب الغلابة، والغلابة كفاية عليهم اللي هم فيه، وعشان كده كل ما أفكر إني إسيب الهبابة اللي اسمها العمودية أرجع في كلامي تاني، انتوا شفتوا وسمعتوا الكلام اللي قاله ليا وقاله لكم، كلام يسم البدن ويقل القيمة، لكن ربنا موجود وأكيد هيخلصنا من ظلمه. ويواصل العمدة: وكمان آسف ليك يا خليفة انت وابنك لأني ماعرفتش أعمل لكم ولا لنفسي أي حاجة.

وعندها يقاطع خليفة: أنا عارف يا عمدة كل حاجة وفاهم ومقدر موقفك، داحنا عشرة وأهل وإخوات من سنين. فيرد زبادي: داحنا اللي متأسفين للي حصلك بسببنا يا عمدة، لكن هرجع وأقولك أن إحنا السبب في اللي بيحصل ده ومعانا طبعا كل البلد وكل اللي حوالينا لأننا رضينا ظلم الظالم، فطبيعي يزيد ظلمه يوم بعد يوم، ياريت كلنا زي عمي صالح اللي هو الوحيد اللي دايمًا يقف له. فيرد خليفة: صحيح يابنى عمك صالح أشجع واحد في المنطقة كلها، لكن ماتنساش أن عمك صالح ماعندوش حاجة يخاف عليها، لا زوجة ولا عيال ولا حتى قرايب. فيقاطع زبادي: معاك يابا أن عمي صالح ماعندوش حاجة يخاف عليها، لكن مش ده السبب اللي مخليه يقف في وش الظالم ده، عمي صالح بيكره الظلم ونفسه يزرع فينا الشجاعة والجرأة ويشيل الخوف من قلوبنا، وبعدين اللي عنده حاجة وخايف عليها زي حالتنا عمل إيه؟ صحيح أنا كنت متاكد يابا أن انت هتعمل حاجات كتير لوما خوفك عليا،

لكن النتيجة إيه؟ أدي انت شايف خوفك عليا وداني لفين، الموت كان أهون من أم الشحات. فيرد العمدة: الناس قتلها الخوف وقبرها الظلم يابني. فيقاطع خليفة: ماتزعلش منى يابني أنا زي ما ورطتك هحلها لك.

أنا هسافر مصر أدور على شغل وانت تحصلني، لكن أنا مش ممكن أحضر حفلة تأبينك ع العبيطة، وانت أن شاء الله ومعاك العمدة أهو وكمان عمك صالح اللي مش عارف راح فين النهاردة. فيرد العمدة: صالح راح طنطا عشان الليلة الكبيرة، شي لله ياسيد يا بدوي. فيقاطع خليفة ويوجه كلامه لابنه زبادي: اهرب بأي وسيلة بعد ما يجبوهالك البيت وحصلني، وانت عارف أنا رايح لمين. فيقاطع زبادي: هتروح فين؟ هو انت صحتك تتحمل وللا سنك ولا نظرك الضعيف؟ عشان خاطري خليك يابا. فيرد خليفة: وانت يا حبيبي عشان خاطري سيبني، رب هنا رب هناك، وانت أن شاء الله هتجيني وساعتها إبقى اشتغل انت وريحني. وعندها يقاطع العمدة قائلاً: سيب أبوك يروح المكان اللي هو عايزه، سيبه يابني الله يخليك.. ويواصل خليفة كلامه قائلاً: لازم تعرف يابنى إنى مارحتش باختياري ويعز عليا فراقك وانت كل ما ليا في الدنيا، لكن لازم تعرف برضو أن الدنيا أقدار، واللى هيطمني عليك أن معاك ربنا ثم الناس الطيبة زي العمدة وصالح، وماتعرفش ربنا مخبي لينا إيه لكن أكيد خير بإذن الله.

❊ ❊ ❊

٤

سافر خليفة إلى القاهرة من أجل ابنه ورحل إلى المجهول لينقذ حياته، وترك الابن الوحيد وحيدًا، لكن الرجل المسن كان واثقا أنه ترك رجلا بمعنى الكلمة، فقد رباه على أن يكون كذلك ونشأه على أن يكون خليفته في الطيبة والاعتدال والتراحم وفى كل المواقف والأزمات لا أن يكون فقط الزبادي خليفة اسما على غير مسمى.

وبعد زفاف زبادي على فاقدة الأهلية أم الشحات حاول الشاب الإفلات للحاق بوالده، لكنه سرعان ما أيقن أنه إذا كان إفلاته قبل تأبينه . أقصد فرحه . صعبًا ومستحيلا فإن إفلاته الآن قد أصبح من رابع المستحيلات، فهو مراقب ليله ونهاره، يعدون عليه حتى أنفاسه، وبالطبع منعوا عنه كل مخاطباته ومراسلاته، ولم يعد لديه أي وسيلة للهروب ولا حتى بريق من أمل في الإفلات واللحاق بوالده، وكان لابد عليه اختيار طريق آخر ألا وهو المواجهة، ولكن كيف ومتى يكون ذلك؟ بالطبع لن يكون الآن، ربما بعد شهور وربما سنوات وعلينا الانتظار.

لكن يبدو أن انتظارنا قد طال، فها هي خمس سنوات تمر ولم يحدث أي جديد، ومنذ رحيل خليفة مرت تلك السنوات على زبادي وكأنها الدهر كله، فالأخبار مقطوعة لا يعلم الابن عن والده شيئا،

وبالطبع الوالد إذا كان مازال على قيد الحياة لا يعلم شيئا عن ابنه، لكن زبادي لم يفقد الأمل في يوم من الأيام في الهروب من سجنه والإفلات من سجانيه ولقاء والده.

وها هو يقابل العم صالح صدفة وقدرًا وبالصدفة بالقرب من قصر الطاغية الورداني، وبالطبع لم يكن أي من أهل البلد يستطيع الاقتراب من قصر الطاغية إلا صالح، وسوف نعرف لاحقا لماذا صالح بالذات دونا عن أهل البلد جميعهم، وربما وجود الصالح في هذا الوقت وفي ذلك المكان هو ما شجع زبادي على اللحاق به حتى وإن لمحه صدفة وذلك حتى يؤنسه لا أن يكون في حمايته كما يظن البعض، إذ يبدو أن المياه الراكدة بدأت تتحرك وبدأت بذور الأمل تبزغ في قلوب الناس خاصة الشباب، وها هو زبادي قد بدأ ولا يهمه ما سوف يحدث له، فهو يعي تمامًا أنه مراقب في كل تحركاته وتجواله وترصده كل العيون، ويبادر صالح بسؤال زبادي: يا ترى يابني ماتعرفش أي حاجة عن أبوك؟ مافيش أي أخبار برضو؟ فيجيبه زبادي: منين وازاى يا عمى صالح؟ والله مانا عارف إذا كان مات ولا عايش.

فيجيب صالح: أنا باطمنك يا زبادي أن شاء الله ربنا هيجمعكوا قريب وقريب قوي. فيقاطع زبادي فرحًا: إزاي يا عم صالح انت عندك أي أخبار؟ فيجيب صالح: والله ما عندي أي أخبار لكن دا إحساسي يابنى وإن شاء الله ربك فرجه قريب. وأثناء الحوار وفجأة يسمع صوت استغاثة بالقرب من قصر الطاغية، فيسرع صالح

حيث مصدر الصوت ويتبعه زبادي، كما جاء أيضًا عدد من شباب القرية وإن كان عددهم قليلا لا يتعدى أصابع اليد الواحدة لكنهم قد جاءوا. وتلك بشرى وبريق أمل جديد يلوح في الأفق المظلم كما حدث مع زبادي، وعندما وصل زبادي والشيخ صالح وجدوا شابًا يُسحل ويضرب بلا رحمة ولا هوادة من زبانية الورداني.

والطاغية كالعادة يجلس في شرفة منزله مع فتاوي، يشاهد ويراقب ما يحدث مبتهجًا سعيدًا تشجيه صرخات المسحول وتأوهاته، وبكل تأكيد متلذذ بضربه وتعذيبه، وعندها صرخ صالح قائلاً: سيبوه يا ظلمة. ورمى نفسه ومعه زبادي في محاولة لإنقاذ الشاب المسكين من بين أيديهم والذي يبدو أنه غريب حيث لم يتعرف عليه لا صالح ولا زبادي، وهو بالتأكيد ليس من أهل البلدة أو الناحية، حيث سأله صالح: عملوا فيك كده ليه؟ فأجابه الشاب بصعوبة: عشان قلتلهم دي يادوب نص أنبوبة ومكملتش الكلمة. عندها تأكد صالح وزبادي أنه غريب فأي شخص من أهل البلدة أو أجوارها لا يستطيع أن يفتح فمه عند تغييره لأنابيبه لأنه يدرك ويعي تمامًا نتيجة كلمته.

لكن هذا الغريب ساقه حظه العثر أن يأتي لزيارة أخته المتزوجة حديثا بالقرية، وتصادف أن أنبوبة الغاز الخاصة بمنزل أخته قد فرغت فجأة رغم أن الأنبوبة تم تغييرها في ليلة الدخلة أي منذ أسبوع واحد فقط، ولم يتم استغلالها إلا في إعداد كوب شاي أو

طهو وجبة أو وجبتين من الوجبات الخفيفة، لكن لا غرابة فإنها أنابيب الورداني.

وبالصدفة أيضًا لم يكن الزوج أو العريس موجودًا بمنزله، حيث كان في زيارة لأخته المريضة في مستشفى المركز، لذا كان على الشاب شقيق العروس أن يقوم بتغيير الأنبوبة بنفسه ليحدث له ما حدث، وبالطبع لم يكن الشاب المسكين يدري من هو الورداني، وربما أخته كذلك بل من المؤكد أنها كذلك، وإلا ما أرسلت أخاها فهي لا تزال في الأسبوع الأول من الزواج، ومن الطبيعى أن يكون مجمل أحاديثها مع عريسها أو زوجها عن الحب والهوى وخلافه، وبالطبع إذا كان الحديث عن الحب والهوى فأعتقد أنه لا مكان فيه للوردانى وطغيانه وجبروته.

لكن وللأمانة فإن هذا الشاب الغريب حتى لو كان للصدفة والأقدار دورها فيما حدث، وحتى أن تم ضربه وسحله إلا أنه قد فتح باب الأمل من جديد بعد أن كان قد أغلق غلقا محكمًا ومنذ سنين طوال، وعندما هم الزبانية بالبطش بصالح وزبادي بسبب إنقاذهما للشاب أتتهم إشارة الورداني بالكف عن ذلك، وبالطبع لم تكن إشارته بترك الرجلين حبًا فيهما وعطفا عليهما أو احترامًا لهما.

ولكن كل ما في الأمر أن الطاغية قد أزعجه ما رآه بعينه وتأكد أن كل ذلك بسبب صالح، فلأول مرة يجادل شاب على أنبوبة، والورداني بالطبع لم يعرف أن كان ذلك الشاب غريبًا أم لا، كذلك

رؤياه لعدد من الشباب ولأول مرة ومن أهل البلدة قد اقتربوا من المشهد أو مسرح جريمته وهو ما لم يتعوده حتى وإن كان هؤلاء الشباب لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة كما ذكرنا، لكنهم قد تجرأوا واقتربوا وهنا تكمن الخطورة، ورغم أن تدخل صالح لم يكن الأول حيث كان له العديد من المواقف ضد ظلم هذا الرجل وجبروته، لكن الجديد والمزعج أيضًا هو تدخل زبادي وللمرة الأولى وتجرؤه، وهي السابقة الأولى التي تحدث والتي لم تحدث قبل ذلك مطلقًا، ويبدو أن طريق المواجهة والذي كان هو الاختيار الثاني لزبادي قد بدأ اليوم وبعد خمس سنوات كاملة، ولا جرم عليه في تأخير مواجهته لكن الأهم أنه قد بدأها،

ومما زاد غضب الورداني أنه عندما أمر زبانيته بالإمساك بمجموعة الشباب وإدخالهم عنوة إلى حيث يجلس مع زبادي وصالح لم يتمكن حراسه من الإمساك بهم، بل جميع الشباب قد نجحوا في الإفلات من قبضتهم وتلك أيضًا هي المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك، حيث كان في السابق كل من يؤمر بالإمساك به وإحضاره يستسلم دون أية محاولات للهروب أو الإفلات، فقد كان الخوف والفزع يتملك الشخص منهم بمجرد رؤية الطاغية أو أي من زبانيته، حيث لا تستطيع أرجلهم حينها أن تتحملهم وتتسمر أقدامهم فيكونوا فريسة سهلة المنال دون أدنى مقاومة حتى لو بالكلمات أو الإشارة والهمهمات.

ويبدو أن ما حدث من الشاب الغريب ومجموعة شباب القرية الشجعان بالإضافة لزبادي قد أسعد صالح كثيرًا وأحيا آماله في أن يوم الخلاص قد اقترب موعده مما جعله يبادر الورداني بالسؤال: ليه يا ظالم بتعذب الناس وتسحلهم؟ فيجيب الورداني متصنعًا عدم المبالاة بما حدث (رغم أن الغل والحقد والغضب يملآن قلبه وكل جوارحه من صالح وزبادي).

لكنه يكتم غيظه ويرد: هاقولك ليه يابو العريف، هقولك إيه يا عملي الاسود، كل ده عشان أنبوبة بوتجاز، تصور الجعر ده واللي انتوا حوشتوا عنه انت والجعر اللي معاك ابن خليفة بيقول إيه، قال أن الأنبوبة يا دوب نصها، ورغم أن فتاوي حلفله إنه كداب ودي أبدًا مش نص أنبوبة، لكن الولا كان مصمم وهو اللى جابه لنفسه. فيوجه صالح سؤاله لفتاوي: وانت بتحلف كدب ليه وعشان إيه؟ عشان دنيا ملهاش لازمة؟ فين ضميرك؟ إخص عليك لما تبقى دمية في إيد ظالم.

فيقاطع الورداني متهكمًا: بصراحة فتاوي ماحلفش كدب أبدًا، واللي يقول غير كده يبقى بيفتري على الراجل، عارف ليه يا صالح انت بتفترى على فتاوي؟ فيقاطع صالح: أنا كمان اللي بافتري؟ عليه سبحان الله! فيرد الورداني بتهكم أكثر: عشان فتاوي عارف إنها ربع أنبوبة ومتأكد أن إحنا بنقسم الأنبوبة على أربعة مش اتنين، عشان كده حلف إنها مش نص لأنها ربع فعلا، إيه رأيك بقى يا صالح؟ يبقى حلفانه سليم ولا لأه؟

فيرد صالح: والله عذر أقبح من ذنب، منكم لله يا بعدا حتروحوا فين من ربنا؟ لكن الورداني رغم سعة صدره وهدوئه كما يبدو للبعض في أسلوبه وحواره مع صالح، لكن من المؤكد أنه قد أضمر شيئا.

وها هو يفصح عمّا بداخله ويعود إلى طبيعته المعهودة وحدته في حواره، حيث ينادي صالح قائلاً: انت بقى حضرتك بتدعي علينا وبتقول أن إحنا ظلمة وكمان هندخل النار!! إيه رأيك بقى انت اللي هتدخل النار وقدام الناس كلها وبكرة عشان يتأكدوا أن انت ظالم، مش انت بتقول الظالم بيدخل النار؟ هنشوف ونتفرج.

ثم يوجه كلامه لزبادي قائلاً: وانت يا جعر يابن خليفة أنا كنت عاوز أخلي كلاب الحراسة تاكلك وتنهشك قدام صالح عشان تبقى عبرة لغيرك، لكن هديك فرصة لحد بكرة وهسيبك عشان تخبر البلد كلها وتقول لهم أن صالح هيدخل النار بكرة، ولما يسألوك ليه هيدخل النار قل لهم عشان ظالم، وبعد كدة دورك انت يا حلو يابن خليفة، يعني بعد النار ماتخلص على صالح الكلاب هتخلص عليك، وعارف ليه اخترت لك موتة كلابي؟ عشان انت كلب واطي، لكن اخترت لصالح موتة حرق عشان ظالم والظالم بيدخل النار وزيه هو نفسه ماقال، وبكرة برضو يا جعر يا بن خليفة.

وعندها ينبري زبادي وبشجاعة يحسد عليها: إياك فاكر يا ورداني أن أنا باخاف م الموت، لا والله ماعادتش تفرق معايا،

أو بالعربى خدت مناعة، انت موتني يوم ما أخدت عجلنا عافية واستقدار، وموتني يوم أبويا ما سافر بسببك وبقاله خمس سنين مانيش عارف هوه فين، عايش ولا ميت، لكن الموتة الكبيرة كانت بإجباري على الزواج من عبيطة هبلة، خلاص ياورداني ماعادش الموت يخوف حد، الناس صحيت صح النوم ياورداني. وعندها يقاطع صالح مبتسمًا مما سمعه من زبادي قائلاً للورداني: انت بتقول إنك بكرة هتحرقني؟ أنا مايهمنيش نارك لأن اللي بيخاف من نار ربنا عمره ما يخاف نار عبده ياورداني، وبعدين حتى لو حرقتني أنا وزبادي وغيرنا مايهمش، خلاص الأمل اتزرع جوا الناس، الناس صحيت من غفوتها وفاقت يا وردانى وأديك شفت البوادر بعنيك.

وعند ذلك يبدو أن الورداني لم يستطع التحمل أكثر من ذلك، فأمر زبانيته برميهم خارج القصر وهو يتوعدهم قائلاً: والله لازم تتحرق يا صالح وبكرة، وانت يابن خليفة هتاكلك الكلاب وبكرة برضو، والدنيا كلها هتتفرج عليكم، لكن صالح استمر في كلامه متوعدا الورداني صائحا: والله نهايتك زى فرعون، أنا متأكد من كلامي ومش انت بس، دا معاك كل كلابك وأولهم هامان اللي جنبك وبإذن الله ده هيحصل والدنيا كلها هتعرف يا ظالم، وعارف إمتى؟ بكرة برضو.

وبعد خروج صالح وزبادي حدث الورداني نفسه قائلاً: كنت دايمًا حريص على إني ما أذيش دا بالذات، وبالطبع يقصد بكلامه صالح،

لكن خلاص جابت آخرها ولازم نخلص منه. فيرد فتاوي: بتقول إيه معاليك؟ فيرد الورداني: باقول خلاص لازم يموتوا لازم. ويكرر بصوت عالٍ: لازم يموتوا وزي ما قلت وبكرة.

فيقاطع فتاوي: والله عين العقل اللي انت قلته معاليك لأن لو ماخلصناش منه بكرة الناس خلاص هتتحرك وأدينا شفنا بوادرها، لكن لو اتخلص عليه هيبقى عبرة لكل من تسول له نفسه وهيرجعوا جزم وكلاب ولمدة ميت سنة جاية.

وعندها يأمر الورداني وبحدة قد تصل إلى الطرد فتاوي أن يتركه وحده، وبالفعل يخرج فتاوي ويجلس الورداني يفكر في الغد وفى النار التي سيشعلها والصديق القديم أو الضمير الحي الذي لابد من حرقه حتى لا يحترق هو،

فقد كان صالح هو الشخص الوحيد الذي يخشاه الورداني ويعمل له ألف حساب دون غيره من الناس، لا لقوة صالح ونفوذه، لكنه كان دائمًا يمثل له صوت الضمير الذي يورقه ليله ونهاره، وهو يعلم تمام العلم أن صالح لا يقول إلا الحق ولا ينطق غير الحقيقة، لذا كان دائمًا يتحاشاه ويحاول ويناور من أجل الابتعاد عنه أو ملاقاته.

ربما لأن صالحًا كان صديقه في يوم من الأيام الخوالي في أيام الجوع والفقر والعتالة، حيث كانا معًا من المعدمين وغيرهما كثيرون، لكنهما كانا جارين ودارهما وإن شئت قل عشتاهما متجاورتان،

لكن وبعد أن اختار كل منهما طريقه وسلك مسلكه ودروبه أصبح للورداني قصوره وممتلكاته وأراضيه وشركاته، وبقى لصالح عشته القديمة وحيدا يسكنها بعد أن ماتت زوجته رحمة الله عليها، ورغم أنه لم ينجب إلا أن كل البلد كانوا أبناءه، ولم يكن يمتلك المال لكن ثروته وممتلكاته كانت حب الناس وودهم.

وكم حاول الورداني أن يبتاع العشة منه وبأعلى الأسعار، لكن صالحًا رفض أن يبيعها بمال الدنيا، وبالطبع لم يجرؤ الورداني على انتزاعها قسرًا وإجبارًا كما فعل ذلك مع الكثيرين، لكن وكما أسلفنا لم يستطع ذلك مع صالح رغم أنه يتمنى أن لا يراه أو عشته، فمجرد رؤيته تؤرقه وتؤلمه فما بالك من تدخل صالح في كل كبيرة وصغيرة ومدافعته عن أهل البلد وكل المستضعفين، وبقي صالح شوكة في ظهره لايمكنه نزعها أو إزالتها ولايستطيع تحمل آلامها ليله ونهاره.

ومن الشائع والمعروف أيضًا أن صالح هو الوحيد الذي يعرف مصادر ثروة الورداني ومن أين جاءت، ويشاع أيضًا أن الورداني قد عرض عليه وفي البدايات ما يعادل ثلث ثروته من أجل أن يرافقه طريقه الملتوي ويأخذ نفس المنحى الوضيع، لكن صالحًا رفض رفضًا قاطعًا كل ما عرض عليه لأنه يعرف حقيقة مصادرها ويعي تمامًا أنها من الحرام قد جاءته، ورغم أن الاثنين مازالا جارين ذلك بعشته وحصيرته ومعزاته الثلاث والورداني بقصوره الفارهة وحدائقه الغناء ومخازن غلاله وأنابيبه،

لكن صالحًا يعيش سعيدًا قانعًا يؤمن بكل القيم والمعاني الجميلة، رقيقا مهذبًا في كل تعاملاته وأعماله وفي كافة مناقشاته وأقواله، لا ينطق لسانه إلا كل ما هو طيب، يثق دومًا في نفسه ولا يمجد ذاته، يحمد دائمًا ربه على نعمه وعطاءاته، رغم أن صالحًا هذا لا يمتلك إلا ثلاث معزات وزوجين من الأرانب وخمسة أزواج من الحمام البلدي، وكل طيوره وحيواناته من الأرانب والماعز والحمام معه يعيشون وفي ذات العشة يسكنون.

وليعلم الجميع أن السعادة لا تباع ولا تشترى، وهي كنز من المحبة والحميمية، السعادة قناعة ورضا بما كتبه الله لك، وهي الحمد والطاعة لرب الملكوت، وهي الضمير الحي والقلب المفعم بالإيمان والحب.

وهي بكل تأكيد الحياة التي يعيشها صالح في عشته المتواضعة، تحيطه أرانبه ومعزاته وفوق رأسه ترفرف زغاليله ويشجيه هديل حماماته.

أما عند جيرانه حيث القصور والفيلات لا يسمع إلا نحيب وأنين للمكلومين والمظلومين، وفحيح يزعجك للأفاعي والحيات، ونعيق يؤرقك للبوم والغربان، وإياك أن تخدعك المظاهر والواجهات، أو أن تفتنك الادعاءات والمقدمات، فكم من قصور تلفها الفخامة والجنان وبين جنباتها تسكن كل المآسي والأزمات، وكم في كواليسها من خباياها وفي الخبايا تكمن كل المحن والابتلاءات،

فإذا كان الحب لا يدخل تلك القصور ولا يدنو من أسوارها فمن المؤكد أنه لا سعادة فيها ولا لقاطنيها، بل البؤس والشقاء كذا في كل الدهاليز والأركان.

وبعد أن خرج زبادي وصالح معًا، وصل صالح إلى عشته أو داره، وواصل زبادي سيره حتى القرية، فمن المعروف أن دار صالح وكما أشرنا سلفًا هي الدار الوحيدة التي تجاور قصر الورداني ومخازنه وثكناته، أما بقية أهل القرية فيبعدون بأكثر من خمسمائة متر عن عشة صالح والقصر، وإن كانت كل مداخل القرية ومخارجها تمر من أمام القصر، فمن المعلوم أن الورداني اختار مكانه بعناية ومنذ البدايات ليتحكم في البشر حيثما ذهبوا وراحوا، وليعد على الناس خطواتهم من خلال تلك المداخل والمخارج وكأنه لا يكفيه أنه ومنذ سنين يعد عليهم أنفاسهم.

❊ ❊ ❊

٥

جلس الطاغية الورداني كما هي عادته برفقة فتاوي وفي ذات المكان شرفة القصر، وكان قد أرسل لفتاوي وأحضره، وكان قبل ساعتين قد نهره وأمره أن ينصرف، لكن الطاغية سرعان ما أحس أنه في حاجة إلى شيطانه والذي لا يمكن الاستغناء عنه، فأحضره مرة أخرى وبالطبع إهانة الورداني لفتاوي في بعض الأحيان قد تعودها كلاهما وصارت بديهيات لا اعتذارات فيها ولا تأسفات، ففتاوي قد باع نفسه للشيطان ومنذ زمن مضى، ومن يبع نفسه وجب عليه ولزم أن لا يسأل من ابتاعه كرامة أوإباء.

وفي الجلسة الثنائية يقول فتاوي: بص يا باشا عايزين المرة دي نشتغلها صح، الناس خلاص بدأت تفوق فلازم نسكتهم ونرجعهم فيران تاني ميطلعوش من جحورهم كل عمرهم، ولازم كمان بتكييف قانوني.

فيقاطع الورداني: قانون إيه وتكييف إيه يا فتاوي؟ فيرد فتاوي: معاليك الفترة اللي فاتت كانت ماشية عنيفة وكمان بعشوائية، لأن ربما طبيعة المرحلة كانت محتاجة التخويف والترهيب، وطبعًا والحمد لله نجحنا في المرحلة دي وبتفوق كمان، وأصبح الخوف جوا الناس معشش والرعب والفزع تملكهم وسكن جواهم، لكن معاليك. فيقاطع الورداني متسائلا: لكن معاليك إيه تاني؟

فيرد فتاوي مكملا حديثه: لكن معاليك المرحلة اللي إحنا فيها دي عايزة شغل وتكتكة. فيقاطع الورداني: بصرني يا فتاوي. فيجيب فتاوي: بص سعادتك، قبل ما آجي لسعادتك أنا شفت في البلد تحركات مريبة وكلام وهمهمات وكمان بعض التجمعات، وشكلهم كده فيه حاجة، وكمان رجالتك وعيونك أكدوا كلامي ده. فيرد الورداني: صحيح كلامك مظبوط، كمل يافتاوي.

فيكمل فتاوي قائلاً: بالإضافة أن إحنا امبارح شفنا ناس جديدة اتجرأت وشفنا ابن خليفة الولا زبادي الجعر بيتكلم بطريقة مش ظريفة مع معاليك، وكمان لما رجع البلد بعد العصر بعد ما طردتهم سعادتك هو وصالح أكيد أنه حكى لهم اللي حصل معاه هو وصالح وحكاية الحريقة بتاعة بكرة والكلاب اللي هتاكله، وده بقى اللي خلى الجرابيع يتحركوا، حتى لو اتحركوا مكانهم لكن ده برضو أول مرة يحصل.

فيقاطع الورداني: والحل يا فتاوي؟ فيرد فتاوي: سبني معاليك نتكتك ونقنن. فيرد الورداني: يعني إيه؟ فيقول فتاوي: سكتنا زي ما هي زي محنا هنحرق صالح هنحرقه، بس الجديد مش بكرة زي سعادتك ماقلت، لكن هنحرقه الليلة، وليه بقى الليلة؟ لأنهم ممكن يكون عدوا نفسهم على أساس بكرة الحريق وبيستعدوله فاحنا نسيبهم يستعدوا لحد ما ييجي بكرة يقوموا يفاجأوا بإنه محروق من إمبارح وماتفرقش كتير الليلة من بكرة زي هذه ليلتي وقصة الأمس، مافيش فرق بينهم كتير، أهم الاتنين أغاني أم

كلثوم، المهم عندنا أن الجرابيع يشوفوه محروق قدامهم ويشوفوه بعنيهم.

وبعدين كمان لازم اللي يقوم بالعملية دي اتنين أغراب مش من أي حد من اللي تبع معاليك، يعني بعيد عن أي حد م اللي شغالين عندك أو أبضياتك وللا بودي جرداتك وحراسك، ولا حتى من بتوع كل مرة.

يعني ما معناه عايزين عيلين من الأغراب أول مرة رجليهم تطب المنطقة، وكمان ضروري نخلص منهم مع صالح وبكدة نبقى ضربنا عصفورين بحجر واحد وخلصنا م الاتنين اللي إحنا قاصدينه والعين عليه صالح واللي معاه سرنا العيلين الأغراب، يقولوا بعد كدة سرقة بالإكراه ولا أي حاجة ولا قتلوه لما قاومهم وناس أغراب مش تبعنا خالص، يفندوها زي ماهم عايزين، وكده يبقى من الناحية القانونية تمام وبعيد عننا.

وعشان كمان معاليك مانحرجش الناس اللي فوق ونخليهم دايمًا يخدمونا وهم مستمتعين بخدمتنا، لأن عمايلنا مش عشوائية كلها تكتكة وانت عارف الناس دي بتحب المخ النضيف وتعز التفكير والتكتيك، اللي هنعمله ده هيخليهم يعملوا اللي إحنا عايزينه منهم وفي بطنهم بطيخة صيفي.

وطبعا إحنا اللي يهمنا والمهم عندنا أن الجرابيع أهل البلد يبقوا عارفين ومتأكدين أن معاليك اللي خلصت من الزفت صالح

وبالظبط زي ما وعدتهم في رسالتك مع زبادي ابن خليفة، وطالما وصلت رسالتنا يبقى خلاص وصلنا لهدفنا اللى إحنا عايزينه، عشان كل واحد فيهم يحط لسانه جوا بقه ويدخل جحره.

فيرد الورداني بعد أن راقه الحديث قائلاً: تمام يا فتاوي وعلى فكرة أنا فعلا بعتّ أجيب عيلين من كفر الزيات أغراب يعني زي انت ماقلت وزمانهم جايين، ورتبت كل حاجة، بس الجديد بقى دلوقتي إنهم بدل ما ينفذوا بكرة هيكون التنفيذ الليلة، وكمان كنت مرتب أن العيلين الغرب يروحوا هما كمان ومعاهم سرهم. ويواصل الورداني كلامه قائلاً: تتصور يا فتاوي انت صعب الواحد يستغنى عنك، دانت داهية.

فيرد فتاوي: طب تسمحلي معاليك أمشي أنا؟ فيرد الورداني: لأه تمشي فين؟ خليك معايا الليلة هنا السهرة صباحي لحد مانخلص من صالح والعيلين، وبعدين أنا ماعدتش آمن عليك من ولاد الكلب بتوع البلد، انت هتقعد معايا على طول في القصر، هاخليهم يوضبولك مكنة هنا، جناح خاص بيك، دانا مستحيل أفرط فيك. فيرد فتاوي: متشكر وجزاك الله كل خير، والله كنت عايز أقعد ومارجعش تاني عند الرمم ولاد الكلب لأني مليت وشوشهم وأشكالهم، بس كنت محرج، لكن طالما كده ياريت سعادتك تؤمر لنا بشوية مشاوي ومشروبات حتى لو غازية مش مشكلة، لزوم السهرة الحلوة دي، وكمان لو حبة أنفاس. فيرد الورداني: بس كده؟ طلباتك أوامر يافتاوي، دانا كمان عندي ليك مفاجأة

هتبسطك، الباشا الكبير نسيبنا جاي الليلة وهتبقي سهرة صباحي. فيرد فتاوي: معلش وماتزعلش مني لامؤاخذة معاليك، الباشا الكبير لما بييجي أنا بتربك ومابقاش على بعضي خالص من موكبه وعربياته وحراسته. فيقاطع الورداني: لأ الموضوع مش كدة خالص، دا هو جاي هو وسواقه بس زيارة خاصة، وحشته بنته وجاي يشوفها وهتشوفه يا فتاوي وهو بيضرب معاك الأنفاس وكل البرتيتة اللي معاه. فيقاطع فتاوي: هوه له في ضرب الأنفاس؟ فيرد الورداني: دا هو الكنج بتاع الأنفاس، صحيح بيعدها على الناس برة وطبيعة شغله كده، لكن هنا وعندنا هيشدها بس، وإحنا بقى اللي نعدهاله. فيقاطع فتاوي: أنا كنت حاسس إنها هتبقى ليلة فل الفل وهنعد كتير قوي، وإحساسي عمره ماكدبني أبدًا.

وفي منتصف الليل تقريبًا وبينما يغط صالح في سبات عميق بين حيواناته وطيوره غير آبه أو مكترث بما يدور حوله، نجد أن أهل القرية جميعهم لم ينم منهم أحد ومنذ علمهم من خلال زبادي بما يضمره هذا الطاغية لصالح وزبادي، ولأول مرة يحدث ذلك إذ يبدو أن الخوف قد فارقهم والجبن قد هجر القرية للأبد.

بل أن شباب القرية جميعهم قد ذهبوا للشاب الذي تم سحله متأسفين له عما حدث له من زبانية الورداني وشاكرين له في ذات الوقت أنه قد ساعد في تحريك المياه الراكدة، وبالطبع لم ينسوا صالح وزبادي وأن كان ماحدث من صالح ليس بجديد، فالرجل طوال عمره هو الوحيد الذي كان يقف في وجه الطاغية، لكن

الجديد ما كان من زبادي، وفي نهاية زيارتهم للشاب منشاوي تعهدوا له بالثأر من الطاغية وقريبًا جدًا بإذن الله.

ووفقا للأحداث وما يدور فيها وما استجد منها تعددت الآراء والرؤى داخل القرية من أجل مواجهة المتغيرات الطارئة وكل المستجدات، لكن ما اتفق عليه الجميع هو المواجهة ولا غيرها.

فنرى فريقًا منهم يرى أنه لابد من الذهاب إلى حيث دار صالح وحمايته ومنع زبانية الطاغوت من الوصول إليه، وفريق آخر يرى أنه لابد من الانتظار للصباح ومهاجمة قصر الورداني قبل أن يبطش بصالح وزبادي، وبينما هم كذلك تحدث مفاجأة لم تكن أبدًا في الحسبان، بل ربما تقلب الأمور رأسًا على عقب، وتغير من كل الاستراتيجيات التي وضعوها وقرروا تنفيذها.

حيث تفاجأت الجموع المحتشدة بنيران تشتعل بضراوة وتوحي ألسنة لهبها أنها من بيت صالح مصدرها، وعليه لم يعد هناك بد من حتمية المواجهة والآن، فخرجت البلد عن بكرة أبيها إلى حيث بيت صالح، وبينما هم في طريقهم يهرولون إذ يسمعون فجأة أصوات انفجارات تدوي سريعة متتالية تعقبها نيران مستعرة غطت قصر الورداني وكل ما يحيطه.

فتوقفوا وكان لابد لهم أن يتوقفوا ليستطلعوا الأمر، فالنيران تتمدد هنا وهناك وبسرعة فائقة وتتزايد رقعتها وفي كل الاتجاهات

حتى ظن البعض أنها قد تصل إلى القرية، وها هي الانفجارات تدوي وكأنها الحرب الضروس.

فأضحى الجميع مندهشين مستغربين، فالموضوع قد تعدى صالح وداره، وبينما هم في حيرة من أمرهم وما يحدث، إذا بأم الشحات بشعرها المنكوش وثيابها الرثة تخترق الصفوف وتولول وفجأة تضحك بهستريا وتقول: خالي اتحرق يا ولاد.. خالي اتحرق يا ولاد. وبينما يحاول البعض إسكاتها إذا بها تمرق من بين الجموع وبأقصى سرعة في اتجاه قصر الخال، ويحاول عدد من الشباب اللحاق والإمساك بها، لكنها كانت قد اقتربت جدا من الحريق.

فصرخ العديد من المتجمعين منادين الشباب الذين يلاحقونها بأن يتوقفوا خوفًا على حياتهم، وبالفعل عاد الشباب بعد أن رأوا أنبوبة بوتاجاز تنفجر في المسكينة لتلقى حتفها أمام أعينهم وعلى مقربة منهم.

وبعد موت أم الشحات وتألم الناس مما حدث لها، حيث إن المسكينة لا ذنب لها ولا جرم ارتكبته طوال حياتها، فقد عاشت لا تدري بما يدور حولها بلهاء فاقدة الأهلية، وحتى زواجها الصوري من زبادي لايد لها فيه وربما لا تعلم به حتى وفاتها.

لكنه جرم الطاغية خالها الورداني، وبعد أن دعا لها بالرحمة كل الموجودين إذا بالمفاجأة الأكبر والتي أسعدت الجميع وأذهلتهم في ذات الوقت، وهي أن الشيخ صالح مازال حيًا يرزق لم يصب بأي

أذى، وها هو أمامهم بشحمه ولحمه ومعه ثلاثة من الشباب أحدهم يبدو وجهه مألوفا للبعض، إذ ربما يكون أحد زبانية الورداني، لكن من المؤكد أن الشابين الآخرين من الأغراب أو بمعني آخر من الوجوه الجديدة التي يرونها للمرة الأولى.

ولا تعجب قارئي العزيز من كون الرؤية واضحة للجميع مما يسر وسهل التفريق بين الوجوه، ونحن بعد منتصف الليل بأكثر من ساعة تقريبًا، فالموضع كله أن الليلة لم تكن كباقي الليالي وهي بالطبع كذلك، فالليلة ولحسن الحظ كانت صيفية قمرية فقد كنا في منتصف الشهر العربي تقريبًا، أضف إلى ذلك اتساع رقعة النيران وارتفاع ألسنة لهبها في عنان السماء، لذا ليس بمستغرب أن يصبح ليل المنطقة وكأنه النهار.

وانهالت الأسئلة والتساؤلات على صالح من هنا وهناك بعد الفرحة العارمة بلقائه ونجاته مما أعده له الطاغية الورداني، والتي لم يعكر صفوها سوى وفاة أم الشحات رحمها الله رغم أن موتها وفي ميعادها كان رحمة لها.

لكن وقبل أن يجيبهم صالح رجاهم أن لا يتقدموا أكثر من ذلك لتجنب خطورة الاقتراب وخوفًا عليهم وحرصًا على حياتهم، حيث إنه الآن لا حاجة للذهاب إلى قصرالورداني فلم يعد هناك قصر ولا ورداني، فقد تكفل الله بما هم من أجله كانوا متأهبين وذاهبين،

بل طلب منهم أن ينظروا ويروا ويشاهدوا بأم أعينهم ما يحدث لأنه وبكل تأكيد آية من آيات الله.

وبدأ صالح يجيب على كل الأسئلة والاستفسارات ويقص عليهم ما حدث وما كان، وأثناء حديثه كانت الانفجارات ما زالت تتوالى وتتزايد حدتها والنيران تتسع رقعتها وتعلو ألسنة لهبها.

ولنرَ ماذا حدث ومن أنقذ صالح ومن أشعل النيران في قصر الورداني ومخازن غلاله وأنابيبه رغم أن النيران في بدايتها كانت من بيت صالح، فكيف امتدت وتمددت هنا وهناك لتأتي على كل الأخضر واليابس، ثم من هؤلاء الشباب الذين قدموا مع الشيخ صالح وماهي حكايتهم؟ هذا ما سنراه في السطور القليلة التالية وعلى لسان صالح نفسه.

❊ ❊ ❊

٦

نام صالح مبكرًا بعد صلاة العشاء بساعة تقريبًا وتلك هي عادته طوال حياته، لكنه ما لبث أن استيقظ من نومه مفزوعًا بعد أن أحس بأن أحدًا قد ركله في جانبه، وما أن فتح عينيه حتى رأى شابين يهجمان عليه ويقيدانه بالحبال، في البداية ظن أنه يحلم أو قد يكون كابوسًا، لكنه سرعان ما أدرك الحقيقة.

إنهم زبانية الطاغية وقد جاءوا لكن ما لبث أن سأل الشيخ نفسه: لماذا بكّر الظالم بتنفيذ جريمته؟ لكن الشيخ سرعان ما استشف إجابات ما سأله لنفسه، إذ من المؤكد أنه من أجل التمويه والتخفي وهو مالم يلجأ له مطلقا الباغية الورداني قبل هذا، بل لم يكن في حاجة إليه وفي كل جرمه وجرائمه السابقة.

فقد كان الطاغية إذا ما حدد ميعادًا للسحل أو القتل تراه وفي نفس الميعاد الذي حدده يسحل ويقتل ليوحي للناس أنه أن قال فعل، وذلك إمعانا في تخويفهم وإرهابهم، ولما تيقن الشيخ من صدق ما يدور في رأسه ابتسم غير آبه بمن حوله وسألهم: كنت عارف أن انتم جايين بس ماكنتش عارف إنكم تيجوا بدري كده، لكن على العموم الحمد لله كلها موتة.

فسأله أحدهم: لماذا أنت مبتسم هكذا وقد جئنا لنحرقك حيًا ودارك أيضًا؟

فرد الشيخ: والله يابني عارف أن انتم جايين ليه، لكن ابتسامتي مش عشان أنا مش هاممني ولا أنا سوبر مان زي ما بتقولوا. ويواصل الشيخ: ابتسامتي يابني سببها أن الظالم ابتدى يحتاط في جرايمه مش زي الأول، وده معناه أن الخوف بقى جواه من اللي حصل امبارح من بعض الناس، واللي عددهم أكيد هيزيد يوم بعد يوم.

ويعني دلوقتي لو ربنا مقدرلي أموت، هموت وأنا مستريح لأن رسالتي والحمد لله وصلت. فتوقف الشاب للحظات وكأنه يتأمل حديثا غريبًا بالنسبة له لم يسمعه قبل ذلك، وبالطبع لم يتعوده، لكنه سرعان ما خرج من دهشته وتعجبه وحمل جركن البنزين من على الأرض ورش به ملابس الشيخ المقيد، وكذلك زميله الآخر كان قد رش بقية الدار وكل الحيطان والجدران ولم يبق ربما سنتيمتر واحد بالدار لم يصله البنزين ورذاذه.

ولا ننسي أنه كان على باب الدار المفتوح على مصراعيه يقف أحد كلاب الورداني يراقب ما يحدث داخل الدار ويستحث الشابين ويحثهما بسرعة الانتهاء من تنفيذ المهمة، حتى ردوا عليه قائلين: خلاص خلصنا. وعندها أمرهم كلب الورداني بسرعة إشعال النيران فأجابوه في التو واللحظة سنشعلها، وما أن أمسك أحدهم بعلبة كبريته وأخرج عود ثقابه في محاولة لإشعال النيران، لاحظ الآخر في ذات اللحظة أن الباب قد تم إغلاقه،

وهنا تحدث المفاجأة، وهي أن عود الثقاب لم يشتعل، ربما لأنه تبلل بالبنزين من يد مشعله، لكنه حاول إعادة المحاولة مرة أخرى.

ليفاجأ بزميله ينهره وبحدة قائلاً: أوقف يا بني آدم، إوعى تولع أحسن الباب اتقفل علينا واتحبسنا جوا الدار. ليتجه الاثنان ناحية الباب فإذا به مغلق بإحكام لا يمكن فتحه، فنادى كلاهما على الشاب التابع للورداني والذي كان يحرس الباب فلم يجبهما في المرة الأولى ولا في الثانية، لكنه في الثالثة أجابهم، إذ يبدو أنه قد عاد إلى الباب الذي كان قد ابتعد عنه ظنا منه أن النار ستشتعل وستحرق الشابين مع صاحب الدار، لكنه تفاجأ بالشابين يناديان عليه من الداخل والنيران لم تشتعل، وعندما عاد إلى الباب سألهما لماذا لم تشعلا النار لحد دلوقتي؟

فأجاباه كيف نشعلها والباب مغلق من الخارج؟ فقال لهم: بمجرد أن تشعلوها قولولي أفتح، هفتح لكم على طول. وواصل الشاب كلامه كاذبًا: أصلي قفلت الباب خفت لا حد يشوفكم، انتوا عارفين أن إحنا على سكة وفيه ناس رايحة وجاية وجايز حد يلمحنا. وبالطبع هو كذوب، فمنذ متى كان يخشى الورداني من أي أحد يلمحه أو يراه؟ بل إنه كان يتعمد أن يراه الجميع في كل جرائمه وأفعاله المشينة. لكن الشابين الغريبين أيقنا وتأكدا أن هناك خدعة من أجل إحراقهما مع الشيخ لتضيع معالم جريمتهما وتنتهي بنهايتهما وسرهما معهما،

لكنه كان لزاما عليهما مجاراة الشاب حتى لا يفتضح أمرهما ويقتلوهما، وبعد أن ادرك الشابان أنهما في الحالتين سيقتلان أن أشعلا النيران وإن لم يشعلاها.

وعليه كان لابد من التمويه حتى لا يفتضح أمرهما، وأصبح شغلهما الشاغل كيف يخرجان من تلك الورطة والتي وضعا فيها نفسيهما وكيف ينجوان بحياتهما، لذا بادر أحدهما ونادى على الشاب قائلاً: بالله عليك أول مانقولك افتح الباب تفتح على طول، فوعدهم بذلك وأقسم لهم وبأغلظ الأيمان، وبالطبع لا وعد ولا قسم للورداني أو أي من كلابه وخادميه.

وزيادة في التمويه قال أحدهما للشاب: مش عارف الكبريت ليه مبيولعش الظاهر العلبة غرقها البنزين، ياريت ترميلنا ولاعة. فرد عليهم الشاب بعنف: الله يخرب بيتكم وبيت الكبريت هو انتم مش محضرين نفسكم ليه؟ انتوا جاين تولعوا ولا تلعبوا؟ وواصل قائلاً: هروح أجيبلكم زفتة ولاعة.

وعندها ناداهم الشيخ قائلاً لهم: بسرعة فكوني ياللا وأنا هاخرجكم من هنا. وبالفعل في ثوانٍ معدودة قد تم فك قيود الشيخ، فلم يعد أمامهما طريق آخر للنجاة، لذا لا مناص ولابد من طاعة الشيخ، وبعد أن تحرر الشيخ من قيوده نهض مسرعًا إلى داخل داره قائلاً: اتبعوني. فتبعه الشابان طائعين دون مناقشة أو محاورة، حتى وصل بهم إلى صومعة لتخزين الغلال.

هي بناية اسطونية من الطين تنتهي بما يشبه القبة ارتفاعها قد يصل إلى أربعة أو خمسة أمتار ومساحة قاعدتها تقترب من أربعة أمتار مربعة، والصومعة أو المطر كما يسمونها هي جزء من الجدار المرتفع والذي يحيط حوش الدار، لها باب من داخل الدار يسمح بدخولها ومن ناحية الخارج لها فتحة يكفى اتساعها لخروج شخص منفردًا لكنها مسدودة بالطين منذ سنوات وسنوات، ودخل الثلاثة داخل الصومعة تباعًا وتم فتح المخرج المغلق ولم يكن ذلك صعبًا بأي حال من الأحوال.

لكنهم وقبل خروجهم سمعوا صوت الشاب من الخارج ينادي عليهم إذ يبدو أنه قد عاد بالولاعة فقال أحدهم: لا نرد عليه ونهرب مسرعين، فنهره الشيخ قائلاً: اذهب مسرعًا إلى حيث باب الدار المغلق واطلب منه أن يرميها لك، وبعد أن يرمي بها قل له ثواني وكله هيبقي تمام.

وبالفعل قام أحد الشابين بتنفيذ ما أمره به الشيخ بل إنه زاد من عنده إمعانا في مزيد من التمويه، حيث سأل الشاب أن يفتح لهم بسرعة بمجرد أن يشعلوا النار، أحسن النار تحرقهم هما كمان.

وسرعان ما خرج الشيخ والشابان، لكن الشيخ طلب من أحدهما أن يشعل النيران بالدار، وبالفعل نفذ الشاب دون نقاش هذه المرة حيث رمى بعلبة الثقاب بعد إشعالها بكل ما فيها من أعواد إلى داخل الدار ومن نفس فتحة المطر أو الصومعة التي خرجوا منها.

فاشتعلت النار فورًا في كل البناية، وعندها هرول الشيخ والشابان إلى داخل الزراعات وسأل أحدهما الشيخ عندها: لماذا لم نهرب دون أن نشعل الدار؟ وما جدوى إحراقها إذًا؟ ولماذا انتظرنا اشتعال النيران حتى نهرب؟ فضحك الشيخ وقال: أن لم يتم اشتعال النار في الدار وفي هذا التوقيت فربما يتم إشعالها من جانبهم، بل من المؤكد أنهم سيفعلون ذلك.

وإن لم يفعلوا سيكون السبب أنهم يتشككون في الأمر، وساعتها سيتأكدون أنكم قد هربتم من تنفيذ العملية وسيأتون بكم أينما ذهبتم، وحينها يبقى لزامًا عليهم أن يتخلصوا منكم في التو واللحظة، وبعدها يتخلصون مني حسب ما يترائى لهم وقتها، وقد يكون التخلص مني حرقا وربما بأية وسيلة أخرى يرونها.

أما بالنسبة للسؤال الثاني لماذا لم نتحرك حتى ظهرت ألسنة اللهب، فهذا مرجعه أن لهيب النار يخطف دومًا الأبصار ولا يرى أحد من هنا أو من هناك، حيث يكون تركيز الجميع منصبًا على اللهب ومصادره، خاصة إذا كانت النيران مفاجئة كما حدث، وعليه كنت متأكدًا أنه لن يرانا أحد غير الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن نجا الثلاثة من موت محقق وقطعوا ما يقرب من مائتي متر عدوًا في اتجاه القرية التي تبعد عن الورداني وقصره وكما أشرنا بحوالي خمسمائة متر، فإذا بهم يسمعون دوي انفجارات فتوقفوا قليلا واستداروا لينظروا خلفهم ليروا ماذا يحدث،

فإذا بهم يلمحون كرة من اللهب تطير في السماء من دار الشيخ صالح لتسقط فوق مخازن أنابيب البوتاجاز المملوكة للطاغية وأخرى تلتها على القصر، لكن يبدو أن هاتين الكرتين قد سبقتهما كرات أخرى تسببت في إشعال النيران وحدوث الانفجارات في القصر والمخازن.

وتعجب الشابان من كرات اللهب والتى تخرج من دار الشيخ وتتسبب في كل هذه الانفجارات والحرائق، وعندها تعلق الشابان برقبة الشيخ يبكيان متأسفين ويقبلان جبهته معلنين توبتهما بعد أن رأيا ما فعله معهم، بالإضافة لسماحته ومساعدته لهما كي ينجوا وهما من جاءا ليحرقاه، وأخيرًا ما بدا لهما من كراماته المتمثلة في كرات اللهب والتى تخرج من داره لتحرق الظلم والجبروت وتأتي على القصر وكل المخازن والممتلكات.

لكن الشيخ صالح ما لبث أن طمأنهما وأخبرهما أن ما فعله معهما ليس بجديد وهو ما يفعله مع الآخرين وتلك هي طبيعته التي يحياها ويعيشها، أما من ناحية الكرامات فإنها إرادة الله وقدرته.

وفى هذه الأثناء حيث يسير الثلاثة سويا ويستمع الشابان منصتين لكل ما يقوله لهما الشيخ مبهورين بحكمته وكلماته، إذا بهما يفاجآن بمن يأتي مهرولا خلفهم، وعندما يستديروا إذا برجل يلهث متعبًا ويردد بصوت خافت ضعيف: إيه ده ياربي إيه ده؟! ياربي هي القيامة قامت ولا إيه؟! فيأمر الشيخ الشابين بإمساكه ليفاجأ

ثلاثتهم بأنه هو نفسه الشاب الذي أغلق باب الدار عليهم ورمى إليهم بالولاعة.

إنه أحد كلاب الطاغية، وبالطبع لم يكن إمساكه بواسطة الشابين صعبًا على الإطلاق، بل هو من رمى بنفسه بين أيديهما بل كاد أن يسقط على الأرض من شدة التعب، وعندها نهره أحد الشابين قائلاً: بقى كنت عايز تموتنا إحنا والراجل الطيب ده! فيجيب الشاب بصعوبة: أيوه كانت أوامر الورداني ليا كده، أقفل عليكم الباب عشان تموتوا مع الشيخ صالح ويموت معاكم سركم.

وأكمل كلب الورداني قائلاً: ولما رحت أجيب الولاعة جاتني الأوامر لو مولعوش بعد دقيقتين ارمي كرة لهب كانت معايا متحضرة ومربوطة في خشبة طويلة، لكن قبل ما أولع كرة اللهب عشان أرميها لقيت النار فجت مرة واحدة، فرحت جاري وأنا مبسوط وفرحان عشان أبشر الكبير نفسه وشخصيًا وحسب الأوامر، وكمان عشان آخد الحلاوة اللي وعدني بيها، ويادوب وصلت البوابة ولقيت النار ولعت قدامى جوه القصر وبراه وكأن جهنم في كل حتة وكل مكان، ولقيت الدنيا كلها نار، رجعت تاني وزي ما يكون النار بتجري ورايا، ويادوب فلت وبصعوبة من أنبوبة انفجرت على مسافة قريبة مني، ولقيت نفسي باجري وبأقصى سرعة لحد ما وصلت عندكم هنا.

وأثناء حديث كلب الورداني كانت الانفجارات مازالت مستمرة واستمرت كذلك وحتى التقى الشيخ صالح ومن معه بأهل قريته والذين كانوا في طريقهم لنجدته، ويبدو أن النيران والانفجارات ستستمر طوال الليل، وربما للساعات الأولى من نهار اليوم التالي، فالظالم كان يمتلك مخزنًا ربما هو الأكبر على مستوى محافظات الجمهورية.

ومما زاد الطين بلة هو جشع الطاغية وظلمه، والذي قد دفعه لاستغلال بدروم القصر شاسع المساحة في تفريغ الأنابيب وملئها حيث يقوم عماله وزبانيته بتقسيم الأنبوبة على أربع، وهذا هو ما جعل النيران تأتي فجأة على القصر بالكامل وفى ثوانٍ معدودة ربما قبل أن تلتهم المخازن والملحقات، ولم تعط الفرصة لأي من الموجودين ولم تمكن أحدهم حتى من مجرد محاولة الهروب والتهمتهم النيران جميعهم ولم تترك منهم أحدًا.

من كان يصدق أن تنتهي إمبراطورية الورداني وتتوارى في لحظات دولته، فأكثر الناس تفاؤلا لم يكن يحلم بما حدث، لكنها إرادة الله بعد أكثر من ثلاثين عامًا من الظلم والقهر والإذلال رحل الطاغية ولم يعد له أثر، رحل وكل أفراد أسرته؛ ابنه الوحيد وحفيده الوحيد وزوجة الابن وأبوها، حتى أم الشحات ابنة شقيقته أبت إلا أن تلحق به وكانت والدتها قد رحلت قبل عامين حتى أنه لم يعد هناك وريث.

لكن الرجل والحق يقال كان وفيا للعِشرة، فلقد أبى أن يرحل دون صحبته وأصحابه ومريديه، فرحل معه صهره والد زوجة ابنه الوحيد، وما أدراك ما صهره هذا كما أشرنا سلفا، وبالطبع رافقه فتاوي مستشاره وقاضيه، بالإضافة لكل داعميه من أصحاب السلطة والنفوذ، حتى حراسه وأبضياته وبودي جارداته.

حقيقة لقد استعد الرجل الطاغية لتلك الليلة استعدادًا ما دونه استعداد، ولأول مرة يحتاط لكل كبيرة وصغيرة، فقد انتهى زمن اللافكر والعشوائية في تنفيذ جرائمه ومخططاته وكما أشار عليه مستشاره فتاوي أنه لابد من التقنين والتكتيك، لذا نراه قد اجتمع بكل حراسه وبلطجيته وأبضياته وأمرهم أن يبقوا داخل القصر لا خارجه مستعدين متأهبين بأسلحتهم لا يغادرونه حتى تنقضي تلك الليلة، وذلك تحسبًا لأي محاولات من الأهالي لمهاجمة القصر إذا ما قتل صالح، وبالطبع أمرهم الطاغية بإطلاق النار على كل من يقترب من سور القصر ومهما كانت أعدادهم، وذاك هو التقنين كما قال فتاوي.

وبالطبع المقصود بالتقنين كما يراه هؤلاء السفهاء أن يكون كل ما تقوم به من جرم وإجرام قانونيًا لا يدين فاعله، أليس الدفاع عن النفس أو القصر يكفله القانون؟ خاصة إذا ما حدث ذلك أمام أعين داعميه وأصحاب النفوذ والسطوة، وبالطبع في وجود مريديه وأحبائه وكل الشللية والمرائين.

لذا جمعهم الطاغية ليكونوا شهود عيان على همجية الرعاع أهل القرية في تهجمهم على أناس مسالمين داخل مسكنهم، حتى إذا قبضوا على بقاياهم ومن نجا منهم من القتل وحاكموهم قبضوا مستمتعين وحاكموا سعداء، وذاك هو التكتيك أو التكتكة كما أشار فتاوي.

وبالطبع كان من المفترض أن تكون تلك الليلة هي الليلة الكبيرة والحفلة العظيمة والتي أعد لها لتكون هي السهرة الأجمل والتي يحتفل فيها الورداني ومعه كل ضيوفه بالخلاص من صالح، ناسيًا هذا الورداني أن صالح ليس شخصًا، وإنما صالح هو الرمز وهو الفكرة التي طالما أرقته كثيرا والتى لم يجرؤ يومًا على مواجهتها، لذا نراه لم يستطع اتخاذ أي قرار بوأدها إلا في الليلة الموعودة وبعد أن يئس من الحلول، استجمع كل قواه وأغمض عينيه واتخذ قراره، لا بمواجهة الفكرة لأن المواجهة حتمًا ستكون في غير صالحه، فكيف يواجه فكرة من لا يملك فكرًا؟ ولكن بمحوها واجتثاثها كما ترائى له ظنا منه أن ذلك هو الأسهل والأيسر، ناسيًا هذا الطاغوت أن الفكرة إن ولدت لا يمكن أبدًا وأدها، يؤكد ذلك ما حدث لأهالي البلدة عشية ليلة الأحداث حتى قبل أن تبدأ حرائقها وانفجاراتها.

لكن الظالم لم يدرِ أنه باستعجاله القضاء على صالح أو الفكرة والرمز كما أشرنا قد عجل بنهايته هو ونهاية كل من معه وبقي الرمز حيا، وعاشت الفكرة دومًا رغمًا عنه.

وفي صباح ليلة الانفجارات كان كل شيء قد انتهى من مآسٍ ومظالم وظلمة إلى غير رجعة، واستيقظت القرية على فجر جديد وصباح مفعم بالحب والأمل، وقد يكون تعبير القرية استيقظت غير ملائم لأن القرية وكل من جاورها لم تنم في تلك الليلة.

وقام الشيخ صالح بتسليم الشبان الثلاثة إلى العمدة، والذي بدوره أمر خفراءه بالقبض عليهم، ولقد فاجأنا شيخ الخفراء سعدون قائلاً: بتقول إيه يا عمدة؟ داحنا صدينا يا عمدة والإيد البطالة نجسة. لكن الحمد لله قام الخفراء بالقبض عليهم وكان ذلك أمرًا يسيرًا، فالشبان الثلاثة كانوا مستسلمين ومن البداية لكنهم ظلوا يقبلون يد الشيخ وهم يبكون ويرجونه أن يسامحهم قائلين: نحن لا يهمنا الآن السجون أو المعتقلات من بعد ما عرفنا هذا الشيخ الكريم الطاهر صاحب المعجزات والكرامات، فقد تبنا على يديه ونأمل من رب العالمين العفو والسماح.

وقام العمدة بتسليمهم إلى المركز لتأخذ العدالة مجراها، حيث وجهت للثلاثة تهم الشروع في القتل للشابين الغريبين لمحاولتهما قتل صالح، وكذلك كلب الورداني لمحاولته قتل صالح والشابين الغربين، وكانت النيابة قد استدعت الشيخ صالح للشهادة قبل أن توجه التهمة للشبان الثلاثة.

لكن العمدة ما لبث أن اتخذ قرارًا غريبًا بأن قدم استقالته تاركًا للبلدة أن تختار لنفسها عمدة جديدًا خلفا له،

وبرر العمدة قراره الشجاع بأنه طوال الفترة الماضية لم يستقل خوفًا من أن يأتوا ببديل على شاكلتهم، وكان لابد أن يكون البديل كذلك إمعانا في الظلم والجور، وقال العمدة: مع أنني لم أظلم أحدًا لكنني وللأسف لم أنصف أي مظلوم أيضًا، ولم يكن في استطاعتي أو مقدرتي عمل أي شيء لغيري ولا حتى لنفسي، فكيف أجرؤ على النظر في عيون من لم أنصفهم حتى وإن كان ذلك خارجًا عن إرادتي وليس بمقدوري.

لذا لابد من دماء جديدة لم تذق الانكسار والذل والمهانة كما حدث معي وسامحوني على اعتذاري.

وبقي السؤال الأهم، وهو ماهي الكرامات والمعجزات التي كان يقصدها الشبان الثلاثة والخاصة بالشيخ صالح؟ ورغم أن الشيخ صالح لم يجب على السؤال في حينها لكنه من المؤكد أننا سندرك حتما الإجابات من خلال ما هو قادم ومن أحداث روايتنا.

وكان لابد لزبادي أن يسافر إلى القاهرة بحثا عن والده خليفة، والحمد لله لم يعد هناك ورداني ولا أم الشحات، وعليه ودع كل محبيه وأهل قريته ودعا له الجميع بأن يجمع شمله ووالده خليفة وأن يعودا سويا بإذن الله إلى قريتهما قريبا.

فزبادي قد أضحت له مكانته في قلوب كل أهل القرية خاصة بعد موقفه الأخير مع الطاغية المقبور، وبالطبع كان في وداعه العمدة والشيخ صالح وشدّا من أزره، كما بشره صالح للمرة الثانية بأنه سيلتقي والده بإذن الله،

وداعبه العمدة بأن الخمسة قراريط موجودة لحين عودته ومتى يرجع يستلمها، وكان العمدة قد منحها زبادي ليزرعها مشاركة وذلك عقب سفر خليفة مباشرة.

كما زار زبادي بعض شباب القرية عارضين عليه الذهاب معه ومرافقته إلى القاهرة حيث إنها المرة الأولى التي يسافر فيها زبادي إلى تلك المدينة الصاخبة المزدحمة، بل ربما هي المرة الأولى التي يغادر فيها محافظته ولا نقول قريته؛ لأن مدرسته الصناعية التي تخرج فيها كانت ومازالت بعاصمة المديرية.

لكن زبادي شكر الشباب ممنونا وأسعده كثيرًا مارآه منهم وكل أهل البلدة، لكنه في ذات الوقت طمأنهم بأنه وإن لم يغادر حدود محافظته فإن ما حدث له في خلال السنوات الخمس الماضية قد جعل منه رجلا يستطيع أن يجابه أية مشاكل ولا تهمه أية معضلات.

كما عرض عليه الكثيرون نقودًا لكنه أخبرهم بأنه معه من النقود ما يكفيه من خلال ادخاره لبعض المال ومن عائد بيع حماره، وكان الأهم بالنسبة لزبادي هو حفظه لعنوان سيد أبو المكارم بالقاهرة وهو ابن القرية المجاورة، كما تجمعه بخليفة صلة نسب وصداقه قديمة، وهو من قصده خليفة وسافر للعمل معه منذ خمس سنوات، وبالطبع لم تكن هناك أية مراسلات أو خطابات بينهما بسبب ما فرضه الطاغية من حصار وحظر على زبادي.

❊ ❊ ❊

٧

من هنا تبدأ رحلة زبادي إلى مجهول لا يعلمه باحثا عن والده، والذي افتقده كثيرًا، محدثا نفسه: هل والدى مازال حيًا يرزق أم وافته المنية ومات غريبًا عن أهله وبلدته ولحق بوالدته أم زبادي والتي رحلت هي الأخرى منذ ثماني سنوات خلت؟

ترى ماذا تخبئ الأيام لزبادي؟ هذا ما سنعرفه بعد أن يسافر الزبادي خليفة وتبدأ رحلته ومشاويره إلى عاصمة الألف مئذنة، والتى وبكل تأكيد قد تعدت مآذنها اليوم الآلاف المؤلفة.

استقل زبادي القطار في طريقه إلى القاهرة وانتهى به المطاف في محطة مصر ليرى زحامًا وجموعًا من البشر لم يعتدها ولم يرها من قبل، حقا إنها المدينة الكبرى الصاخبة المزدحمة والتي طالما اشتاق لرؤيتها وتمنى أن تطأ قدماه أرضها، لكن ماذا يفعل وحيدًا في هذا العالم الغريب؟ إنه المجهول بالنسبة له، ورغم أنه تمنى أن يزورها وحلم كثيرًا بذلك، لكنه الآن ليست الزيارة هدفه، فهدفه والذي جاء من أجله هو البحث عن والده والذي افتقده منذ خمس سنوات، فمهما كان شوقه للمدينة التي هو فيها الآن إلا أن شوقه لوالده أكثر، لكن كيف العثور عليه؟

فالقاهرة ليست كفرًا أو نجعًا أو حتى مدينة كباقي مدن الجمهورية، ومن سيساعده ومن سيقف بجانبه في مشواره هذا؟ والذي قد بدأه الآن، لكن أين سينتهي به المطاف فهو لا يدري هل سيجد والده في العنوان الذي سيذهب إليه عند أبي المكارم أم ربما لا يجد لذلك العنوان مكانًا، وإن توصل إلى مكانه هل سيجد ضالته التي من أجلها قد جاء؟ وهل سيكون هناك أبو المكارم فعلا؟

كل تلك الأسئلة والتساؤلات تدور الآن في رأس هذا الزبادي المسكين، فهل سيجد لها إجابات؟ أم ستظل أسئلة لا أجوبة ولا ردود لها؟ لنرَ ماذا سيحدث في رحلة هذا السندباد الزبادي خليفة.

والذي كم تمنى أن يكون الزناتي خليفة لا الزبادي خليفة كي تفتح له كل الأبواب الموصدة، مع العلم بأنه لوعاد الزناتي خليفة مرة أخرى لكانت حيرته كما الزبادي خليفة الآن وربما أكثر.

وبينما هو يسير بين تلك الجموع ولا يدري إلى أين هو ذاهب بدأ المسكين يحدث نفسه: حتروح فين يازبادي يابن خليفة في الزحمة دي؟ ياترى يازبادي انت جاي تدور على أبوك ولا جاي تضيع معاه؟ ياترى رجلك واخداك لفين يازبادي؟ ويبدو أن المسكين كان يحدث نفسه بصوت مسموع وهو لا يدري.

وفجأة يستوقفه شخص يرتدى نظارة سوداء قائلاً: ازيك يازبادي عامل إيه يابن عمي خليفة. فيقول زبادي مندهشا للرجل: انت عارفني؟ فيرد الرجل: إزاي ماعرفكش؟ بالحضن ياراجل.

ويحتضن الاثنان بعضهما ومازال زبادي مندهشا، وعندها يسأل الرجل: وعارفني إزاي؟ فيرد الرجل قائلاً: انت زبادي ابن عمى خليفة وجاي كمان ياسيدى تدور على أبوك في مصر، وعندها يزداد اندهاش زبادي أكثر وأكثر، لكنه سرعان ما خرج من اندهاشه هذا بسبب صياح المحيطين به وهم يصرخون: حرامي حرامي،

ويمسكون بالرجل الذي يرتدي النظارة السوداء والذي احتضن زبادي، فقد سرق الرجل محفظة زبادي وكل المحيطين بزبادي قد رأوه وهو يسرق إلا زبادي نفسه صاحب المحفظة فإنه الوحيد الذي لم يرَ شيئا مما حدث له، بل مازال مندهشا لا يدري بما يدور حوله.

وانهالت الضربات من هنا وهناك على اللص لم يوقفها إلا بعد أن سقطت منه نظارته على الأرض لتكون المفاجأة، فاللص الذي سرق محفظة زبادي كفيف لا يبصر، وعندها خبط الموجودون كفا بكف، إذ إنها المرة الأولى التي يرون فيها لصا أعمى، لذا تعاطفوا معه ربما أكثر من المسروق والذي لا يدري بنفسه.

لكن أمين الشرطة والذي كان قد حضر إثر ما حدث أصر على اصطحابه إلى نقطة شرطة المحطة هو والمسروق لعمل محضر، وكان بعض الموجودين قد رجوه أن يتركه عطفا عليه وطالما أن المحفظة قد عادت إلى صاحبها كما هي والرجل كفيف، لكن رجل الأمن أصر على تطبيق القانون، ومعه كل الحق.

وبالفعل ذهب السارق والمسروق أو الجاني والمجني عليه برفقة أمين الشرطة إلى نقطة شرطة المحطة، وكان زبادي مازال مذهولا مما حدث ويحدث، لكنه ربما قد تعاطف مع اللص الكفيف هو أيضًا رغم أنه كان سيسلبه نقوده وما يملكه.

وعندما سأل الضابط اللص قائلاً: اسمك وسنك وعنوانك. أجاب اللص: اسمى سيد أحمد عويس ٣٥ سنة وساكن في بولاق أبو العلا. وعندها تهكم الضابط: أعمى وبتسرق! أول مرة أشوفها. فأجاب سيد عويس: يافندم سرقة زبادي مش محتاجة مفتح يا باشا. فضحك الضابط، ووجه كلامه لزبادي قائلاً: وانت يا طحش إزاي أعمى ويسرقك؟ فكان جواب زبادي مفاجأة للضابط والموجودين وللحرامي سيد عويس نفسه، حيث قال: يسرقنى إيه يا افندم دا صاحبي وحبيبي من أيام ماكنا في الجيش سوا، وكان دايمًا يلعب معانا حكاية عسكر وحرامية، والله يخليه لما عرف من التليفون اللي أنا شدتهوله إن أنا جاى القاهرة الله يكرمه جا يقابلنى في المحطة عشان أنا أول مرة آجى فيها مصر. فيقاطع سيد عويس: هي دي الحقيقة يا أفندم. عندها ينظر الضابط إليهما باندهاش ثم يقول: الله يخرب بيت دي شغلانة، أنا خلاص حطيت صوابعي في الشق من اللي باشوفه من أمثالكم.

ثم يسأل زبادي بحدة قائلاً: إزاي يا طحش أعمى ويدخل الجيش؟ فيجيب زبادي: هوه كان مفتح لوالكش صاروخ جه في عينه غلط فاتعمى المسكين.

فيرتفع صوت الضابط ويقول لزبادي: صاروخ جه في عينه عماه؟ فيظن زبادي من كلام الظابط أنه يعني أو يقصد أن الصاروخ لايمكن أن يعمى الرجل، وعليه يجيب زبادي قائلاً: الكدب خيبة يا افندم الصاروخ بصراحة طرف عنيه بس، لكن الصول عبد السميع كان بيكره سيد شوية. فيقاطع سيد عويس: أيوه صحيح الصول عبد السميع كان بيكرهني يا باشا مش عارف ليه. فيكظم الضابط غيظه ثم يقول لزبادي: كمل ياراجل بعد الصاروخ ماطرف عنيه والصول عبد السميع كان بيكرهه شوية. فيكمل زبادي: الصول إداله قطرة وقاله حط منها ياسيد هتخلي عينك فل، أتاري القطرة بوظت عينه. عند ذلك يقف الضابط ويصرخ بشدة في اللص الأعمى قائلاً: انت أعمى من إمتى يا وله؟ فيرد سيد بلا تفكير قائلاً: أنا مولود كده يا أفندم. فيرد الضابط قائلاً: تمام قوي كده، يعني مافيش جيش ومفيش صاروخ ومفيش الصول عبد السميع. فيرد سيد: تمام كده يا باشا.

ثم يستدير الضابط ويوجه كلامه لزبادي وبنفس الحدة: وانت يادهل دخلت الجيش إمتى؟ فيجيب زبادي: أدخل الجيش إزاي يا افندم وأنا وحيد أبويا؟ ويكمل زبادي قائلاً: أيوه يا باشا مفيش جيش ومفيش صاروخ، بس مش متأكد فيه الصول عبد السميع ولا لأ.

وعندها يشتاط الضابط غضبا أو يبدو ذلك عليه ويقول لزبادي:

- انت بتنكت كمان يادهل؟

ثم يكمل الضابط كلامه قائلاً: أول مرة في حياتى أشوف الجاني والمجني عليه بيدافعوا عن بعض. ويمزق المحضر منفعلا كما يبدو ذلك ويرمي لهما ببطاقتيهما على الأرض قائلاً: ياللا من هنا. وعندها يلتقطان بطاقتيهما ويخرجان مسرعين وممسكين ببعضهما.

ورؤيتي الخاصة لكل ما حدث داخل نقطة شرطة المحطة أن الضابط ربما تظاهر بالغضب لكنه في قريرة نفسه قد تعاطف معهما؛ الجاني والمجني عليه مراعاة لظروفهما، فهو في النهاية بشر وإنسان.

المهم أن زبادي وسيد وبمجرد خروجهما من نقطة المحطة إلى الخارج تأبط كل منهما الآخر، ويبدو لمن يراهما هكذا أنهما صاحبان منذ سنين لا جانٍ ومجني عليه منذ دقائق معدودة، ويبدو أن تلك الصداقة والصحبة والتي ولدت من رحم الألم وفي محطة السكة الحديد سوف تدوم طويلا ويستمر قطارها حتى آخر محطات العمر، وهذا ما سوف تكشف عنه مجريات الأحداث.

جلس الصديقان زبادي وسيد على مقهى شعبي قريب من مبنى محطة السكة الحديد، حيث بادر سيد قائلاً لزبادي: موقف الرجولة والجدعنة اللي انت عملته معايا ده عمري ما هنساهولك لحد آخر يوم في عمري.

فيرد زبادي: انسى يا سيد كلها حاجات بسيطة، بس أنا نفسي أسألك سؤال محيرني، انت عرفت منين إن أنا زبادي وإن أنا ابن خليفة وجاي أدور على أبويا؟

فيجيبه سيد وهو يضحك مقهقها: يازبادي دانت صوتك وانت بتكلم نفسك كان مسمع كل المحطة، دانا ياراجل لو صبرت عليك شوية كنت عرفت اسم بلدكم وأسامي الناس اللي فيها نفر نفر، بعد دا كله جاي تقولي عرفت منين وكمان السؤال محيرك؟

ويعاود زبادي قائلاً لسيد: بس أنا واخد على خاطري منك، الراجل الظابط يقولك أعمى وبتسرق ترد عليه تقوله هي سرقة زبادي محتاجة المفتح؟ فيرد سيد: لأ يا زبادي، اللي أنا كنت عايز أوصله للظابط إن المحفظة مع زبادي كأنها في الشارع، وزي ما بيقولوا المال السايب يعلم السرقة، كل ده يابن والدي كان قصدي منه إني أضحكه شوية يقوم يخفف عليا، خصوصًا إن إحنا لما رحنا النقطة قلت خلاص رحت في داهية. ويواصل سيد قائلا: وفعلا يا زبادي كلامك الظريف وكلامي خلوا حضرة الظابط يتعاطف معانا، والنتيجة إنه قطع المحضر ومشانا.

بس قل لي يا زبادي، انت جبت حكاية الجيش دي إزاي؟ وكمان الصول عبد السميع والصاروخ؟ فيرد زبادي: أهوه اللي جه في دماغي ساعتها، أني كل اللي كنت قاصده أخرجك م الموضوع بعد ما صعبت عليا، بس ياسيد أنا عايز أسألك سؤال محرج شوية، ليه بتسرق؟ انت مش عارف إن السرقة حرام؟

فيرد سيد: والله العظيم دي أول مرة في حياتي، وأنا جيت المحطة من صبحية ربنا على أساس أشوفلي شنطة أشيلها ولا حاجة واسترزق مالقتش حاجة أشيلها،

وانت عارف مين هيشيّل أعمى زي حالاتي يا خويا، إذا كان المفتحين مش لاقيين حاجة يشيلوها، وبعد الجوع ماقتلني، أنا من امبارح ماحطتش الزاد في بطني وكنت رايح ناحية القطر اللي انت جاي فيه لعل وعسى ألاقيلي شنطة ولا قفة أشيلها وأجيب حاجة آكلها أنا وأختي، لكن بالصدفة وبدل القفة لقيت زبادي ولقيت نفسي جنبك والشيطان وسوس لي وحصل اللي حصل، واللي يأكد كلامي خيبتي وأنا باسرق، دا كل أمة لا إله إلا الله شافتني ولوما إن خيبة اللي أنا باسرقه زي خيبتي (معلش سامحني يا خويا) ماكانش حصل حاجة من الأول.

فيبتسم زبادي: خلاص انسى بقى الموضوع ده ويالا بينا نشوف لنا حاجة ناكلها. فيقاطع سيد قائلاً: والله أنا محرج منك يا زبادي العين بصيرة والإيد قصيرة. فيرد زبادي: محرج إيه ياراجل إحنا اخوات، بس بلاش فشر طب الإيد قصيرة ماشي، لكن العين بصيرة تيجي إزاي!! وعندها يضحك الاثنان سويا ويقاطع زبادي قائلاً: أنا معايا حتتين جبنة قديمة يستاهلوا بقك. فيرد سيد: والله نفسي فيها هي فين؟ فيرد زبادي: ماتستعجلش على رزقك، أنا معايا برطمان مليان.

وبعد أن انتهيا من أكلهما وبعد أن شربا الشاي أيضًا، يبادر سيد سائلا زبادي: انت جاي مصر ليه؟ فيرد زبادي: لسه فاكر تسأل دلوقتي؟ فيقاطع سيد: هو الجعان يدور على الأكل ولا يسأل؟

فيجيب زبادي: أنا جاي أدور على أبويا اللي بقاله خمس سنين من يوم ما جه مارجعش. فيسأل سيد متهكمًا: خمس سنين؟ وانت كنت فين وبعد خمس سنين جاي تدور على أبوك؟ كنت كملتهم عشرة مستعجل كده ليه! فيرد زبادي: اللي مايعرفش يقول عدس.

ويواصل بحزن قائلاً: دي حكاية يطول شرحها، ماتقلبش عليا المواجع ياسيد. فيتأسف سيد له ويقول له: ياللا بينا على بيتنا ياللا معايا. فيرد زبادي قائلاً: تاني هتفشر؟ فيقاطع زبادي: والله عندي بيت وأسرة كمان، انت مستقل بيا وللا إيه؟ فيرد زبادي: ومادام عندك أسرة هروح معاك إزاي؟

فيرد سيد: أسرتي هي أختي وبس، ياللا قوم معايا.

وما إن يصل الاثنان المنزل حتى تفاجأ وردة أخت سيد بالضيف ويفاجأ الضيف بها، فهي شابة في العشرينات من عمرها أنيقة جميلة رغم حياة البؤس التي تعيشها مع أخيها بعد أن مات والدهما، والذي كان قد قدم من الصعيد وعمل بوابًا طوال ما يقارب الثلاثين عامًا حتى وافته المنية العام الماضي، وكانت قد سبقته أمهما بسنوات قليلة.

وبعد وفاة الوالد كان لابد من رحيلهما من غرفة البدروم بعمارة بحي المهندسين حيث لابد من بواب جديد، وبالطبع سيد لكونه كفيفًا لا يصلح لتلك المهنة، بل أصبحت وردة هي المسئولة عنه،

حيث تعمل بأحد محلات الملابس بالمهندسين والذي يمتلكه أحد سكان العمارة التي كان والدها بوابًا لها، وبالطبع ما تتقاضاه قد يكفي بالكاد وربما لا يكفي في كثير من الأحيان بمتطلبات الأسرة، حتى وإن كانت مكونة من فردين اثنين أخ وأخت.

بالإضافة لإيجار المنزل المتواضع الذي يسكنانه، والذي هو عبارة عن حجرتين أعلى سطوح إحدي العمارات القديمة بحي بولاق أبو العلا الشعبي، والمسكينة لم تذهب إلى عملها اليوم حيث إنها مريضة تعاني من ارتفاع في درجة الحرارة، وبالطبع لم تكن هناك أية نقود لشراء أية أدوية، وربما هذا ما دفع سيد للذهاب لمحطة السكة الحديد بحثا عن العمل، وليحدث له ما حدث كما أسلفنا، لكن والحمد لله يبدو أن وردة قد تعافت بدون الحاجة إلى أدوية أو مسكنات.

ولقد لامت وردة سيد وعنفته بسبب خروجه وحده، وعندما تدخل زبادي قائلاً: الحمد لله ربنا ستر ورجعلك تمام. لكن وردة أكملت حديثها قائلة: والله دي أول مرة في حياته يعملها ويروح مشوار لوحده، أنا عارفة إنه استغل إن أنا نايمة تعبانة وخرج، وكمان اللي زاد وغطى يروح محطة السكة الحديد اللي أنا المفتحة يمكن عمري مارحتها.

ثم تعود وردة لترحب بزبادي قائلة: أهلا وسهلا، معلش أنا آسفة دخلناك في مواضيعنا ومشاكلنا.

فيرد زبادي: الحمد لله، والله أنا حاسس إني بقيت واحد منكم ومن خلال الشوية الصغيرين دول. ويواصل: انتم ناس طيبين قوي انتي وأخوكي. فترد وردة: باين عليك متعلم من كلامك يا... فيقاطع زبادي قائلاً: زبادي، اسمي زبادي خليفة عجب زبادي، ومعايا دبلوم صنايع قسم نجارة، وكان نفسي يكون عندي ورشة، وإن شاء الله هيكون بس بعد شوية. فردت وردة سائلة: وليه بعد شوية؟ اللي بيحلم بحاجة ومعاه فلوسها يعملها. فيرد زبادي: حكاية الفلوس دي هي السبب التاني اللي مخليني لابد أستنى، لكن السبب الأول إني جاي في مأمورية خاصة.

فتقاطع وردة: وإيه هي المأمورية الخاصة دي؟ فيرد: دا شيء يطول شرحه يا وردة، لكن سيبينا من المأمورية الخاصة، إنتي بصراحة كلامك جميل قوي ياوردة. فيرد سيد قائلاً: إحم إحم إحنا هنا، إنت بتعاكس أختي قدام عنيا؟

فيرد زبادي: والله ما بعاكسها أنا بقول الحقيقة، والحمد لله العيش والملح عمري ما أخونه لو اتقطعت رقبتي. فيقاطع سيد: دا مش بس عيش وملح، دا عيش وجبنة قديمة، وكمان يا زبادي هو ده دايما كلام أختي وردة ورغم إنها متعلمة ومعاها دبلوم تجارة لكن مش دا السبب، السبب طيبتها وتربيتها. وعندها تصاب وردة بالخجل وتقول: سيبونا من المواضيع دي، أنا شامّة ريحة الجبنة القديمة، هي فين؟ الحقوني بيها.

ويشير زبادي لها إلى حيث برطمانه،

وتسألهم وردة: أعمل حسابكم معايا؟ أنا هاخرط عليها طماطم وأحط عليها زيت وأخليها آخر حلاوة. فيرد عليها زبادي وسيد معًا قائلين: دا إحنا فول تانك، كلي انتي بالهنا والشفا. ويزيد زبادي: بس بعد ماتخلصي أكلك ياريت تعمليلنا كوبايتين شاي بإيديكي الحلوين دول. فيقاطع سيد مرة أخرى ضاحكًا: تاني بتعاكسها قدام عنيا؟ فيرد زبادي: انت كل شوية تقول قدام عنيا قدام عنيا، ماتبطل فشر بقى.

وبعد أن شرب الثلاثة الشاي وجلسوا يواصلون أطراف الحديث، وها هو زبادي يستأذنهم في الخروج، ولكن سيد يصر على مبيته معهما حتى الغد ولحين أن يجدوا له غرفة قائلاً: لأ الحمد لله إحنا عندنا أوضتين، أنا وأختي هننام في واحدة وانت في التانية يا سيدي، وزي ما بيقولوا حصيرة الصيف واسعة، ولكن زبادي كان مصرًا، وعندها تقاطع وردة: بيقولك سيد لبكرة لحد ماتلاقي مكان، لكن النهاردة هتروح فين وانت غريب والغريب أعمى ولو كان بصير.

وإذ فجأة يصرخ سيد ممسكًا بجانبه الأيمن وينادي: إلحقوني سكاكين بتقطع فيا. فتبادر وردة قائلة: خير يا أخويا؟ وكذلك زبادي يقول له: انت بتعمل كده عشان أقعد معاكم؟ خلاص يا سيد هبيت هنا اسكت بقى وبطل حركاتك دي. فيرد سيد: دي مش حركات والله العظيم دا بجد، سكاكين بتقطع في بطني من جوا.

وتدخل وردة وتعد له كوبًا من النعناع ولكن دون جدوى، الألم يتزايد والمسكين يصرخ، وعندها قال زبادي: إحنا عايزين دكتور بسرعة. فقاطعته وردة قائلة: بس.. بس.. فرد عليها زبادي: مالكيش دعوة روحي انتي جيبي الدكتور بسرعة، وبالنسبة للفلوس اطمئني من الناحية دي وحطي في بطنك بطيخة صيفي.

ولم يمر أكثر من عشر دقائق حتى جاءت وردة بالدكتور الجراح "عبده سرعتلي" ويقال إن سرعتلي تلك لم تكن أبدًا لقبًا له ولكنها كنية اكتسبها بسبب تسرعه وتسربعه في إجراء عملياته وكشوفاته، رغم أن الكثيرين يشيدون بمهارته ونبوغه، وقد علمت وردة كل ذلك عن الطبيب من خلال صديقتها وزميلتها مريم التي تعمل في عيادته مع ثلاث أخريات، ولكن هذا هو الموجود والمتاح الآن وفي ذلك الوقت المتأخر من الليل.

وبمجرد أن دخل سرعتلي المنزل حتى قال: فين المريض بسرعة خلصونا. فقال له زبادي وهو يشير إلى سيد: أهو اللي بيتأوه داهو. وبمجرد أن يضع الطبيب يده على سيد يقول: أعور. فيرد زبادي عليه: أعور إيه دا أعمى. فيكرر الطبيب: أنا لما أقول أعور يبقى أعور وماحدش يناقشني. فيرد زبادي: وأنا كمان متأكد إنه أعمى. وهنا تتدخل وردة وقبل أن تتفاقم الأمور وتقول لزبادي: أعور يا زبادي يعني زايدة. فيرد زبادي: طب مش يقول كده أنا فكرته بيتكلم على سيد وبيقول أعور، عشان كده قلتله لأه دا أعمى.

وعندها يقول زبادي للطبيب: آسف يا دكتور. فيرد الطبيب: سيبونا من الأسف وقولولي هتعملوا إيه دلوقتي؟ فيرد زبادي: اللي تشوفه صح يادكتور اعمله وإحنا تحت أمرك. فيقول الطبيب: قدامكم تلت سكك، الأولانية لوعايزينه في نظام فندقة يبقى المستشفى اللي أنا شغال فيها في مصر الجديدة، بس دي هتكلفكوا كتير قوي. فتقاطع وردة: والتانية يا دكتور؟ فيرد الطبيب قائلاً: التانية لو يعني الحكاية مش قد كده معاكم يبقى في العيادة بتاعتي اللي موجودة جنبكم، أما التالتة قبل ما تسألوني عليها وتضيعوا وقتكم هي لو مستغنيين عنه يبقى تودوه مستشفى حكومي.

فيرد زبادي ووردة معًا: التانية يا دكتور. فيقول الدكتور: خلاص ماشي، بس معاكم فلوس تكفي؟ فيرد زبادي وهو يخبط على صدره قائلاً: كل فلوس الحمار فدا سيد؟ فيطمئن الدكتور ويخرج على أن يأتوا به بسرعة للعيادة، والحمد لله أن العيادة قريبة جدًا من البيت.

وأثناء العملية تخرج الممرضة مريم صديقة وردة من الداخل وتنادي على وردة قائلة: والله يا وردة أنا مكسوفة منك. فترد وردة وزبادي معًا: خير؟ إوعي يكون سيد جرى له حاجة.

فترد بسرعة مريم: لأ الحمد لله دا العملية زي الفل وسيد زي الفل، كل الموضوع إن الدكتور سرعتلي تملي يكسفنا مع حبايبنا، تصدقي يا وردة إنه مش راضي يكمل العملية وسايب غرزتين مفتوحين وحلف ماهو عاملهم إلا لما ياخد متين جنيه كمان،

فضلت أقول له صاحبتي وزميلتي مفيش فايدة، الله يكسفه زي ماهو دايما بيحرجنا.

وعندها يخرج زبادي مائتي جنيه من جيبه ويقول لمريم: خدي يامريم وادخلي له بسرعة. وبعد دخول الممرضة سأله بعض المرضى الموجودون والمنتظرون لدورهم في العمليات: إيه الموضوع يابني؟ فأخبرهم زبادي بما حدث، فما كان من أحدهم إلا أن سأل زوجته: انتى جبتي كل فلوس العملية معاكي؟ فأجابته زوجته: طبعًا معايا. فقال لها الزوج: ياريت تتأكدي تاني أحسن دي عملية بواسير، ولو ساب حاجة مفتوحة هتبقى فضيحة وجرسة.

لكن وردة تنظر إلى زبادي بإعجاب وتقول له: انت إنسان عظيم قوي يا زبادي، انت.... ولا تستطيع أن تكمل حديثها حيث تنهمر دموعها، لكن زبادي يكمل ويقول لها: انتم أهلي اللي ربنا قدر لي ألاقيهم بعد سنين طويلة م الوحدة، وكمان دموعك غالية عليا قوي، بلاش تبكي عشان خاطري، صحيح أنا ماكملتش أربعة وعشرين ساعة معاكم لكن الساعات دي حسستني إن أنا اتولدت هنا وعشت معاكم كل عمري.

وأثناء الانتظار حتى خروج سيد من العمليات ثم إلى غرفة الإفاقة بعد ذلك، حكى زبادي لوردة كل حكايته ومنذ مولده حتى مجيئه إلى القاهرة، وكذلك كل ما مر به من مشاكل وأزمات، وكان في القلب من حكاياته وبالطبع الطاغية والجبروت الورداني.

❊ ❊ ❊

٨

في اليوم الثاني بعد العملية وبعد رجوع سيد إلى منزله سليمًا معافى جلس بجانبه زبادي يداعبه أثناء إعداد وردة للطعام، ويقول له: بقي مانتش قادر تستحمل حتة جبنة قديمة، كأنك كلت ديناميت، دا أختك على كده أرجل منك. فتنادي وردة من المطبخ قائلة: وبعدين، جايبين سيرتي ليه؟ فيرد زبادي قائلاً: بكل خير والله.

ثم يهمس زبادي في أذن سيد قائلاً: كنت مستعجل على فلوس الحمار وعايز تسرقها؟ شفت لما صبرت أخدتهم برضو بس بالحلال.

ويرد سيد قائلاً: الله يجازيك خير يا زبادي. معلش أنا مش قادر أضحك م الجرح.

فيميل عليه زبادي ويقول له: أظن الحمد لله انت بقيت كويس وأنا بقى هسيبك ومن بكرة إن شاء الله، عشان أروح العنوان اللي قلتلك عليه وأدوّر على أبويا ويارب نلاقيه.

فيرد سيد: لأ ماينفعش تروح أي حتة لوحدك يا زبادي، انت مهما كان غريب والغريب أعمى حتى لو كان بصير، اصبر يوم ولا اتنين بكتيره وأنا أروح معاك. فيرد زبادي ساخرًا: يا عمي انت هتروح معايا إزاي؟ انت مش بتقول الغريب أعمى حتى لو كان بصير؟ يبقى إزاي اتنين عمي يمشوا مع بعض؟

فيقاطع سيد: طب خلاص يا سيدي طالما مش عايز تستنى لما أخف، خد معاك وردة أهي حافظة البلد شبر شبر.

فيرد زبادي: وانت مين يخدمك؟ لا لا ماينفعش. فيرد سيد: إيه اللي هيقل نفعه بس؟ اسمع كلامي أنا خلاص بقيت كويس، وبعدين بلاش تعملهم علينا بقى تلاقيك كنت مستني الحكاية دي ومن ساعة ما وكلتني الديناميت قصدي الجبنة القديمة.

ويذهب زبادي ووردة إلى العنوان ويتم السؤال عن قريب زبادي سيد أبو المكارم، وبعد جهد وعناء توصلا إليه حيث وجداه رجلا مسنًا طريح الفراش، فقد أصبح لا يستطيع العمل، كما يبدو أنه يعاني من الزهايمر ذلك المرض العضال، والذي أصبح يصيب عددًا غير قليل من كبار السن، ويبدو أنها هبة ربانية للكثيرين منهم، حيث لا يتذكرون ما هم فيه وبالتالي لا تزيد همومهم وتكثر إحباطاتهم وتتفاقم مآسيهم.

وها هو المسكين أبو المكارم قد أنكر زبادي في البداية ثم مالبث أن عرفه ورحب به ترحيبًا شديدًا، ثم عاد وأنكره مرة أخرى، المهم أن أبا المكارم أخبرهما أن والده خليفة قد جاءه منذ عشر سنوات أو عشرين ربما، لكنه عاد وقال: لا اتهيألي خمسة بس.

وسكت الرجل قليلا عن الكلام ثم عاد وواصل حديثه حيث قال: لما تعب خليفة بعنيه وهو شغال معايا قلتله انزل تحت في الضلة عشان تريح شوية وقلتله نام لك وخدلك تعسيلة لحد آخر النهار، ولما خلصنا المقاولة رحت أشوفه عشان نروح سوا مالقتوش، تنيت

أدور عليه يومين وسبت شغلي وكان معايا تلاتة أربعة من حبايبنا وبلدياتنا، لكن مافيش فايدة وكأنه فص ملح وداب، وقلت أكيد روّح البلد وشدتلك يومها تلغراف وبعدها تلت أربع جوابات لكن مجانيش رد منك خالص. ثم ما لبث أن عاد الرجل إلى زهايمره مرة أخرى حيث سأل زبادي: ألا هو عامل إيه وأمك عاملة إيه؟ وانت مين وجاي ليه؟ وماجبتوش معاكم أنيسة ليه وعطية؟ دانا بقالي شهر ماشفتش حد منهم.

وعندها يقول زبادي لوردة: ياللا بينا، دا الحكاية بايظة خالص عند أبو المكارم. وعندها تسأل وردة زبادي: هي مين أنيسة دي يا زبادي؟ فيرد عليها زبادي قائلاً: مش لما أعرف مين عطية الأول!

واستمر زبادي يحدث نفسه ووردة قائلاً: الأمل الوحيد واللي كنت جاي عشانه طلع سراب. ثم واصل زبادي: يا ترى أنا هروح فين وهاعمل إيه؟ وإزاي هدور على أبويا؟ إزاي أدور على إبرة في كوم قش؟

وعندها تطبطب على كتفه وردة وتطمئنه وتقول له: إن شاء الله هتلاقيه أنا عندي إحساس بيقول كده، ومهما البلد كانت كبيرة وواسعة هنلفها أنا وانت وشبر شبر ومش هنيأس أبدًا وهيكون معانا إصرارنا وعزيمتنا وهنوصل له إن شاء الله، وكل يوم أنا وانت آخر النهار وبعد ما نرجع من شغلنا هنلف وندور وعلى رجلينا إحساسي بيقول لي إن إحنا هنقابله صدفة، وأنا إحساسي عمره ماكدبني أبدًا.

ومن المعلوم أن زبادي قد وجد عملا في بنزينة قريبة من محل سكنه والذي هو بجوار سكن سيد ووردة.
لكن زبادي ما لبث أن تحدث إلى وردة قائلاً: مش عارف يا وردة عمي صالح قال لي هتقابله وهتلاقيه، ولما سألته منين عرفت ياعمي صالح؟ قال لي إحساسي بيقول كده، وانتى كمان بتقوليلي إن إحنا هنقابله وصدفة وبرضو إحساسك بيقولك كده. ويواصل زبادي حديثه مع وردة قائلاً: انتى طيبة قوي ياوردة زي عمي صالح، بس خايف تكونوا بتحاولوا تدوني الأمل وترفعوا من روحي المعنوية. فترد وردة: ع العموم يا زبادي المية تكدب الغطاس، وبكره تشوف وتتأكد من كلام عمي صالح اللي كان نفسي أشوفه من كتر كلامك الحلو عنه، وكمان هتتأكد من صدق إحساسي اللي قلتلك عليه قبل كده مابيكدبش أبدًا.

وبالفعل اعتاد زبادي ووردة يوميًا التجوال في المدينة المترامية الأطراف المزدحمة الصاخبة، وكانا قد وضعا خريطة لكل القاهرة الكبرى وقسماها إلى مناطق وأحياء بداية بالعشوائيات فالمناطق الشعبية ثم الأحياء التي تجمع بين الشعبية والراقية أو البين بين، ثم بعد ذلك الراقية، وكان عليهما البدء بالأحياء الأكثر احتمالا لوجوده وهي العشوائيات ثم الشعبية.
ومر أكثر من شهر والبحث مازال جاريًا عن العم خليفة، ولكن ظهرت لزبادي ووردة مشكلة علاوة على ما هما فيه من مشكلات،

وكان عليهما حلها حتى يتفرغا تمامًا لبحثهما الدؤوب والمستمر عن خليفة.

والمشكلة كانت في سيد شقيق وردة، وربما كان محقًا فيها وكانت المشكلة اعتراضه على خروجهما المتكرر حتى وإن كان من أجل غرض نبيل، والمشكلة لم تكن في سيد، فسيد يحب زبادي جدًا وبالطبع أخته، ولكن اعتراض سيد جاء خوفًا من كلام الناس، وفي ذات الوقت كان شريكا لهما في إيجاد الحل، فقد وافق أن يعقد زبادي على وردة، وكم كان زبادي يتمنى ويتوق إلى اليوم الذي يجمعه بوردة وهي كذلك، لكن المسكين زبادي كان يأمل أن يكون وضعه المادي أفضل حتى يوفيها قدرها.

وعليه منحهما سيد إحدى غرفتي المنزل وهي الغرفة الأكبر والأوسع، وتم شراء غرفة نوم جديدة بسيطة وانتريه صغير، وبالطبع بعد طلاء الشقة وإعادة ترتيب أوضاعها، وكم كانت سعادة زبادي ووردة بعد زواجهما.

وفي اليوم التالي للزواج خرج العروسان ليتنزها على الكورنيش بعضًا من الوقت قبل أن يبدآ مشوارهما اليومي في البحث عن عمي خليفة هنا وهناك، فقد تعاهدا على ذلك سويًا، ويكفيهما راحة الأمس حيث كانت ليلة الدخلة، وبينما يسيران على الكورنيش إذا بوردة تطلب من زبادي ربع جنيه فكة، وعندها يسألها زبادي متعجبًا: ولماذا ربع جنيه؟

فترد وردة: عشان أديه للشحات اللي إحنا عدينا عليه هناك ساعة مسألتني انتى بتبصي على إيه، ورديت قلتلك الحمد لله، أصله صعب عليا وهو بيبصلنا بصة غريبة، حسيت إن فيها حب كبير وعطف، رغم إنه ياعينى مافهوش عيون خالص. فيرد زبادي: خدي الربع جنيه أهو.

بس بدل ماترجعي دا كله إديه لأي شحات يقابلنا وخلاص، ماهم كتير وفي كل حتة هتلاقي واحد مادد إيده. فترد وردة: لا لا أنا هارجعله دا كل المسافة ماتجيش عشرين تلاتين متر، هو إحنا هنعد الخطاوي ولا إيه؟ دا إحنا لسه شباب يا روحي.

وبالفعل تعود وردة حيث مكان الشحات ثم تعاود مرة أخرى حيث مكان زبادي ليسألها زبادي انتي اتاخرتي كده ليه؟ فترد: اسكت يا زبادي الراجل صعب عليا خالص، يادوب شافني قدامه وأنا بديله الربع جنيه مسك إيدي وقال لي انتي ملاك، وقعد يدعيلى ويقول لي ربنا ينولك اللي في بالك يا بنتي، ولما قلتله اللي في بالي نلته الحمد لله، بس ياريت تدعيلنا إن إحنا نلاقى إلى راح مننا.

رد وقال لي: هتلاقوه إن شاء الله وقريب قوي، وكمان قال لي كان نفسي ابنى يتجوز ملاك طاهر زيك كده، لكن حظه اتجوز سفيهة وعبيطة وأنا هنا بسببها، وقعد يبكي وسبته وعنيه عمالة تفرفط دموع وجيتلك. وتواصل وردة قائلة: والله الراجل ده أثر فيا جامد.

فيرد زبادي متهكمًا: تلاقيه شافك حلوة مسك إيدك وانتي كمان تلاقيكي سيبتيهاله لما قالك انتي ملاك، يعني أي حد يقولك انتي

ملاك تسلميه إيديكي يا وردة الحب الصافي؟ فترد وردة: والله يا زبادي أنا كنت حاسة إن الراجل بيتكلم من قلبه مش بلسانه، منها لله مرات ابنه هي اللي عملت فيه كده زى ما قال.

فيقاطع زبادي: انتى بنت حلال ياوردة وطيبة عشان كده بتشوفي الناس كلها طيبين، لكن للأمانة انتي شوقتينى أشوف الراجل ده.

فتقاطع وردة: ياللا نروحله تاني وأهو بالمرة تشوفه، أنا متأكدة إنه هيصعب عليك.

فيرد زبادي: معلش عشان نلحق ندور على أبويا قبل الوقت مايسرقنا، وبكرة إذا أراد ربنا نبقى نشوفه، هوه هيروح فين؟ فترد وردة: إن شاء الله بكرة نقابله ونخليه يدعيلنا تاني وتالت إن إحنا ربنا يكرمنا ونعتر في أبوك ونلاقيه إن شاء الله.

وفي آخر اليوم وبعد أن قطع العروسان عددًا من الكيلومترات سيرًا على الأقدام في رحلة البحث اليومية عادا إلى المنزل بخفي حنين كما كل الأيام السابقة، لكن اليأس لم يتملكهما بل ظل قلباهما مفعمين بالأمل وبالنهاية السعيدة، ربما كان وجود الأمل يعود لإحساس الوردة الطيبة ومن سبقها من بشرى العم صالح الرجل الصالح حقا، وربما بسبب دعاء الشحات المسكين لهما.

المهم عاد زبادي ووردة حيث وجدا أن سيد قد أعد لهما طعام العشاء، وبعد أن تناولوا الطعام وأثناء شرب الشاى، إذا بسيد يتألم ممسكًا بجانبه الأيمن، فيسأله زبادي: مالك فيه إيه؟ فترد وردة: مش عارفة الحكاية دي بقالها أسبوعين معاه بتروح وتيجي.

فيقاطع زبادي ويقول لوردة: اغليله شوية نعناع يشربهم يمكن يخففوا الألم عنه، والصبح نوديه لدكتور يشوفه.

ويعاتب زبادي سيد ووردة قائلاً: ولما الوجع ده متعود يجيله ماقلتوليش ليه؟ فيرد سيد وهو مازال يتألم: هو انت ناقص يازبادي؟ كفاية عليك اللي انت فيه. فيرد زبادي: كلام إيه اللي انتم بتقولوه ده؟ دانتم بقيتوا أهلي وكل اللي ليا في الدنيا. ثم يواصل زبادي قائلاً: صحيح أنا كنت جاى أدور على أبويا ومازلت، لكن حتى لا قدر الله ومالقتوش كفاية إني لقيتكم، ربنا كرمني بزوجة إنسانة وطيبة وأخوها رجل طيب وهو أخويا وعزوتي.

ثم يكمل زبادي: أنا شايف إن الألم مكان العملية، وأنا من يومها وأنا شاكك في الدكتور سرعتلي الزفت ده. ويواصل زبادي ساخرًا حتى يخفف عن سيد آلامه وموجها كلامه له قائلاً: بس برضو العيب فيك يا سيد، الدكتور أكيد استعماك وماشلش الأعور.

فيقاطع سيد ويبدو أن ألمه قد أصبح أقل حدة بعد تناول كوب النعناع حيث يقول: أبدًا والله الدكتور شال الأعور ماهو أصل أنا كنت واخد بنج نصفي وطول العملية وأنا باصصله كنت خايف من إنه مايشيلوش.

فيرد زبادي معلقا على كلام سيد: مافيش فايدة فيك يا سيد، الألم جواك وانت مديها فشر وفرم. وعندها تبتسم وردة وتقول لهما: مافيش فايدة فيكم كل حاجة واخدينها هزار وضحك، يارب خلينا لبعض وما تفرقنا أبدًا، ويكون معانا عمي خليفة بإذن الله.

وفى عيادة الدكتور نور الطبيب الجراح والذي رفض ثمن الكشف لسابق معرفته بزبادي، حيث جاء زبادي عدة مرات إلى العيادة برفقة زميله في العمل للغيار على العملية التي أجراها له الدكتور نور، وقد علم الدكتور من زبادي كل حكايته في خلال مرات تردده على العيادة، ولذلك سأله وقبل أن يقوم بالكشف على سيد قائلاً: إيه يا زبادي مفيش جديد في موضوع أبوك؟ ليرد زبادي: والله لسه يا دكتور. فيرد الدكتور وهو يهم بالكشف على سيد: إن شاء الله خير يازبادي، وماتيأسش وسيبها على ربنا. فيرد زبادي ووردة معًا: ونعم بالله !!

وبعد توقيع الكشف على سيد سأل الدكتور: انتم عملتوله العملية عند مين وإمتى؟ فيرد زبادي: من قيمة شهر تقريبًا وعند واحد اسمه سرعتلي. فيرد الدكتور: مالقتوش إلا سرعتلي؟ فيرد زبادي قائلاً: أنا قلت كدة برضو هو أكيد ماشالش الأعور صح يا دكتور؟ فيجيب الدكتور: لأ هو أكيد شال الأعور بس المشكلة مش في كدة. فيرد الثلاثة معًا زبادي ووردة وسيد: أمّال المشكلة فين يا دكتور؟ فيجيب الدكتور: المشكلة إن سرعتلي ده ماعملش أي عملية من غير ما ينسى حاجة جوا بطن المريض، يعني فوطة، جِفت، مقص، وده اللى أنا شاكك فيه، وعشان كده لازم نعمل أشعة ونشوف فيه إيه. فيصاب الكل بالدهشة، لكن زبادي يسأل: يعنى الأشعة ممكن تقول فيه حاجة وممكن تقول مافيش؟ فيرد الدكتور: أنا متأكد إن فيه حاجة بس الأشعة هتبين هل الحاجة دي فوطة وللا مقص ولا

جفت ولا إيه بالظبط، وعلى العموم ماتخافوش أيًا كان إيه اللي في بطنه أنا هاعمله العملية ومن غير ولا مليم والأدوية والعلاجات كلها من عندي من العينات اللي موجودة في عيادتي، يعني مش هدفع لكم حاجة من جيبى. وعليه يشكر الثلاثة الطبيب ويدعون له وينصرفون لعمل الأشعة.

وبعد إجراء الأشعة والتى أوصى بها دكتور نور وأثناء الانتظار حتى يتم عمل تقرير الأشعة وكتابته، كانت المفاجأة إذ إن أكثر الموجودين القادمين لإجراء الأشعة كان جميعهم من ضحايا سرعتلي، وقبل أن ينادي فني الأشعة على الموجودين والمنتظرين حتى يتسلموا تقاريرهم، وجه رجاءه للموجودين قائلاً: بتوع سرعتلي يجوا على جنب عشان هناديهم الأول.

وبدأ ينادي الرجل اسم المريض ويخبره إيه الموجود في فيلم الأشعة حتى يفهم كل مريض إيه اللي عنده قبل الرجوع إلى طبيبه، خاصة إذا عاد لنفس السرعتلي مرة أخرى، حيث بدأ ينادي فني الأشعة قائلاً: رقم واحد علي أحمد سعيد، اتنين فوطة، ثم رقم اتنين سعيد جمعة، جفت وفوطة، حتى وصل رقم تلاتة محمود سمير، لكن الفني وكأن لسانه ألجم ولم ينطق ماذا عنده، فسأله محمود سمير: فيه إيه؟ هو انت جيت عندي وسكت ليه؟

فأجاب الرجل: ماقدرش أقولك فيه إيه قدام الناس ياعمي محمود.

ففهم العم محمود سمير مقصده، وجلس على كرسيه شاردًا واجمًا يخبط كفا بكف، واستمر الفني في ندائه حتى وصل رقم اتناشر

سيد عويس، وقال: جفت بس، واستمر الرجل ينادي حتى النهاية والحمد لله أن الوحيد الذي وجد عنده حاجة واحدة من بين أكثر من عشرين شخصًا هو سيد ومعه آخر يدعى عبده الباشا، حيث وجد عند عبده هذا مقصًا فقط كما سيد جفت فقط.

وقبل أن ينصرف زبادي وسيد ووردة اقترب زبادي من الشخص المسمى عبده الباشا والواضح والظاهرعنده مقص فقط وسأله هي عمليتك كانت إيه؟ فكانت المفاجأة في إجابة الرجل، إذ قال: كانت سنتاية في صوبع الإبهام اليمين، وأراهم إبهامه الملفوف بشاش، وواصل عبده الباشا صارخًا ومولولا: ياريتنى ما شلتها، بقى ياناس أشيل سنتاية طولها ميكملش نص سنتي ينسالي مكانها بسلامته مقص طوله خمسة وعشرين سنتي؟ ويواصل عبده الباشا ولولته ودعاءه على الدكتور قائلاً: منك لله يا سرعتلي الكلب.

ثم اقترب زبادي من محمود سمير والذي رفض الرجل ذكر أية تفاصيل عن الموجود عنده في فيلم الأشعة الخاص به، وسأله زبادي: هي عمليتك كانت إيه ولامؤاخذة ولو فيها إساءة فهم مني؟ فأجاب الرجل بغيظ وحدة متناهية صارخًا وساخرًا من حاله في ذات الوقت قائلاً لزبادي: ولا مؤاخذة ليه يا سيدي؟ من غير لامؤاخذة خالص أنا هاقولك العملية بتاعتي كانت بواسير يا سيدي والله بواسير يا سيدي، يبقى من غير لامؤاخذة نسي إيه؟ وكان رد العم محمود بصوت عالٍ حتى أن كل الموجودين قد سمعوا، وعندها أيقن كل الحضور أن سرعتلي قد نسي خابورًا، وعندها

هلل زبادي وسيد فرحين وزغردت وردة وبالطبع غضب صاحب البواسير أو الخابور ظنا منه أنهم يتهكمون على خابوره، فتأسف له الثلاثة وأفهموه أن فرحتهم بسبب أن مريضهم لم يوجد عنده سوى جفت فقط، فكانت سعادتهم لأنه من رأى بلاوي غيره هانت عليه بلواه، وعندها تيقن الرجل أن ما حدث من الثلاثة كان عفويًا غير مقصود ولا علاقة له بخابوره.

وخرج الثلاثة زبادي ووردة وسيد يضربون كفا بكف من دهشتهم حتى عادوا إلى الدكتور نور وأخبروه بما تم وسلموه فيلم الأشعة، وتم إجراء العملية لسيد وفتحت بطن المسكين مرة أخرى لكن طبيبه في تلكم المرة كان طبيبًا وحكيما يعرف تمامًا أن مهنة الطب هي المهنة الأسمى والأجل بين كل المهن، لابد فيها من الرحمة والحميمية والإيثار والمحبة.

حتى وإن شوهها كثيرون أمثال سرعتلي وكل من هم على شاكلته، والذين لا هم لهم ولا هدف إلا تجميع الأموال وزيادة الأرصدة في البنوك حتى لو كان كل ذلك على حساب دماء الفقراء والمساكين، لكن كما أن هناك سرعتلي فإن هناك نور، والنور والضياء دائما أبدًا ما ينتصران ولا ظلمة أو ظلمات حيث يوجدان، والنور يبقى نورًا حتى وإن خفت ضياؤه وسيظل يعطينا الأمل في أنه في يوم من الأيام لابد أن يملأ الدنيا ضياءً ويمحو كل السلبيات والإخفاقات الموجودة.

❋ ❋ ❋

٩

عادت أسرة زبادي الجديدة إلى المنزل ومعها سيد سليمًا معافى والحمد لله، وفى يوم العودة لم يغادر زبادي ووردة البيت حيث إنهما كان منهكين ومتعبين طوال يوم العملية، وكانا في أمس الحاجة للراحة وأيضًا حتى يطمئنا تمامًا على العملية.

لكنهما وفى اليوم التالي واصلا رحلة البحث اليومية وأخبر زبادي وردة بأنهما قد نسيا الشحات في اليومين الماضيين بسبب ما كان لديهما من مشاغل حيث كان هناك أشعات وعمليات ومشاوير هنا وأخرى هناك، فأخبرته وردة بأنهما سيبدآن اليوم بزيارة الشحات في مكانه المعروف وهذا ما تم بالفعل.

لكن كانت المفاجأة حيث لم يجدا الشحات في مكانه، وعندما سألا بائعًا بأحد الأكشاك القريبة المجاورة للمكان الذي يجلس فيه الشحات أجابهما أنه لم يأتِ اليوم ومنذ الصباح، بل أخبرهما أن هذه هي المرة الأولى التي يغيب فيها الشحات منذ ثلاث سنوات ومنذ بنى البائع كشكه، حيث كان للشحات مكانه هذا ومن قبل وجود الكشك بسنوات، ثم سألهما البائع: هو انتم قرايبه ولا حاجة؟ فأجاب زبادي: والله لا قرايبه ولا حاجة، إحنا جايين نشوفه وندبه اللي فيه النصيب.

فرد صاحب الكشك قائلاً: إذا كانت الحكاية كدة امشوا شوية هنا ولا هنا هتلاقوا غيره كتير، ماهي كل الناس بتشحت اليومين دول.

فرد عليه زبادي ووردة قائلين: على رأيك انت بتقول فيها. وانصرفا ليقول زبادي: والله أنا زعلت قوي كان نفسى أقابل الشحات ده خصوصًا بعد كلامك عنه، لكن سبحان الله نيجي مانلاقيهوش، شفتي الحظ يا وردة؟ شحات بقاله أكتر من تلات سنين يوميًا في مكانه، لكن يوم ما نفكر نيجي نشوفه ومخصوص مانلاقيهوش، حظوظ بقى الدنيا ياللا بينا بقى يا وردة نروح مالوش لازمة أي حاجة نعملها الليلة، أنا نفسي اتسدت.

فترد وردة: ليه يازبادي خلينا ندور على أبوك زي كل يوم مانكسلش، دا ساعات بتيجي على أهون سبب. فيرد زبادي: خلاص أنا من ساعة لما مالقيناش الشحات والواحد اكتأب، أراهنك يا وردة إن ماكانش الشحات المسكين ده مات وللا حصلت له مشكلة. فترد عليه وردة: مالك يا زبادي يا حبيبى؟ انت هتقلبها تراجيدي ولا إيه؟ الشحات ده راجل كبير وعجوز ووارد جدًا يكون مات والأعمار بإيد ربنا، واحنا كمان لا أهله ولا ناسه، إحنا بس اكمن قلبنا طيب وعاطفيين شوية أنا وانت اتعاطفنا معاه، لكن يا زبادي يا اخويا إحنا طالعين رغم تعبنا ندور على أبوك يا حبيبي ودا عهد قطعناه على نفسنا إن إحنا لا نكل ولا نمل لحد مانلاقيه.

لكن زبادي كان قد اتخذ قراره بالعودة إلى البيت، وعليه وافقته وردة وقالت له: خلاص يا زبادي يا خويا اللي تشوفه. ثم واصلت وردة حديثها من أجل عدم إغضاب زبادي مجاملة له قائلة: والله عندك حق دانا م التعب رجليا مش شايلاني بس ناخد عشانا معانا، لأنه أكيد سيد مش هيقدر يحضرلنا حاجة عشان تعبان.

فيرد زبادي: والله يا وردة أنا نفسي آكل بلح أسمر وفول وطعمية. فترد وردة قائلة: غالي والطلب رخيص، الفكهاني قدامنا أهو وعنده بلح اسود جميل، والفول والطعمية على ناصية الشارع بتاعنا فيه محل فوله مفيش بعد كده تاكل صوابعك وراه ياللا بينا.

وفى اليوم التالي استيقظت وردة مبكرًا ولم توقظ زبادي لأنها تعلم أنه لن يذهب إلى عمله اليوم، فقد أخبرها بذلك منذ الأمس، وهي لا تدري ما السبب الذي جعله كذلك، فقد كان أحرص الناس على عمله، لكنها لم تسأله السبب خوفا من أن يكون ذلك تطفلا منها أو قد يضايقه إن هي قد اثقلت عليه بأسئلتها وتساؤلاتها.

وعليه ارتدت ملابسها وذهبت إلى حيث عملها وأغلقت الباب خلفها بكل حرص وعناية خوفا من أن يحدث الباب صوتا يوقظه، لكن لم يمر وقت طويلا حتى عادت مرة أخرى وعلى غير عادتها وبعد فترة وجيزة ربما لا تتعدى نصف الساعة، لكن عودتها كانت مختلفة تمامًا عن مغادرتها،

إذ دقت باب المنزل بكل قوة وعنف كما لم ترفع يدها عن الجرس ليواصل رنينه أو ضجيجه المستمر دون انقطاع.

وسبحان الله أن وردة عند عودتها إلى المنزل تريد أن توقظ كل من فيه عكس مغادرتها قبل نصف الساعة، والتى كانت حريصة أشد الحرص على عدم إيقاظ النائمين أو إزعاجهم.

وعليه وعلى أثر طرقها على الباب ورنينها المتواصل استيقظ زبادي وسيد واستبقا الباب من أجل فتحه، حيث أصابهم الخوف والفزع من شدة طرق الباب ونفير الجرس المتواصل، حيث ظن الاثنان أنه ربما يكون هناك خطر محدق يحيط بهما، وجاءهما من يحاول إيقاظهما لإنقاذهما من ذلك الخطر المتوقع، وربما أنه البوليس قد جاء للقبض عليهما أو أحدهما بالرغم من أنه لم يكن هناك أي جريمة أو جرم اقترفاه.

وما إن فتحا الباب حتى فوجئا بوردة والتي لم يتوقعا أبدًا عودتها وبتلك السرعة، لكنها سرعان ما اندفعت إلى داخل المنزل لتجلس بالصالة منهكة متعبة وزبادي وسيد مازالا مندهشين مما حدث، لكن زبادي سألها: إيه المشكلة؟ فيه إيه؟ ويقاطع سيد: فيه حاجة حصلت لك ياوردة؟

فترد وردة وهي تشير لهما بيديها: سيبوني شوية أما آخد نفسي ورايحة أحكيلكم على كل حاجة. وبعد أن هدأت وردة بدأت تحكي لزبادي وسيد وتقول: يادوب خرجت الصبح وأنا ماشية في بولاق

من حارة لحارة وفجأة اتكسر كعب فردة الجزمة اليمين. فيقاطع زبادي: أنا مش قلتلك يا بنت الناس بلاش الكعب العالي ده؟

فردت وردة: اصبر يا زبادي مش دي المشكلة. وتواصل وردة: المهم قلت أكسر كعب الفردة التانية عشان أعرف أمشي بالفردتين لما يبقوا أرضي، لكن المشكلة أعمل ده إزاي، وفجأة بابص يمين وشمال لقيت عشة في ركن من الحارة وقدام بابها حجرين بلك كبار، قلت في نفسي الحمد لله اتحلت دا أنا يا دوب أخبط الكعب في البلكة هينكسر على طول، وكمان وأنا جوه العشة ماحدش هيشوفني وأبقى محرجة وأنا باعمل كده.

فيقاطع زبادي: وبعدين ياوردة فيه حاجة حصلت ليكي ولا لأ؟ فترد وردة: اصبر يا حبيبي اللي جاي هو الأهم. وتكمل وردة: أنا يا دوب دخلت العشة وأنا ماشية على طراطيف صوابعي وبارفع فردة الجزمة عشان أضربها في الحجر أكسر كعبها، وأفاجأ بأن فيه راجل جوا العشة، بابص فيه لقيته راجل مسن كبير، لكن المفاجأة الكبيرة إن الراجل ده طلع هو نفس الشحات اللي أنا اديته الربع جنيه واللي إحنا رحنا امبارح عشان نقابله ومالقيناهوش.

فيقاطع سيد قائلاً: شحات مين اللي انتوا رحتوا تقابلوه؟ ويقاطع زبادي: وإيه الغريب في كده عشان يخليكي ترجعي بالشكل ده؟ فترد وردة: الغريب لسه جاي، بص يا سيدي انت وهو، قبل ما أسأل الشحات هو ده مكانك وأعرّفه بنفسي حصل العجب العجاب اللي

خلاني أقفل بقي خالص وأكتم نفسي كمان عشان الشحات مايشوفنيش ولا يحس بيا، عارفين ليه؟ لأن الشحات اللي أنا اديته ربع جنيه معاه مليون جنيه، فك حزام من على وسطه وعد رزم الفلوس واللى كل رزمة فيهم مربوطة باستكها وقدام عنيا وقال بصوت خافت ربما خوفا من أن يسمعه أحد: الحمد لله كملت المليون. وكرر بنفس الصوت: الحمد لله كملت المليون. ويواصل الشحات قائلاً بصوته الخافت: يارب باركلي في ما أعطيتني وسامحني. فيقاطع زبادي: شحات ومعاه مليون جنيه؟ وانتى بسلامتك رايحة تديله ربع جنيه. ثم يقول زبادي لوردة: كملي وقولي لي إيه اللي حصل بعد كده؟

فتجيب وردة: أنا جايالك أهو. وتكمل: بص يا سيدي، أنا قلت لازم أخرج من العشة من غير ما يحس بيا وكمان من غير حد من أهل الحارة ما يلاحظ حاجة، المهم بصيت يمين وشمال مالقتش حد، وعليه خرجت من العشة جري لحد ما جيت هنا.

ومن اللي حصل وشافته عنيا وسمعته بوداني نسيت إن جزمتي فيها فردة بكعب والتانية من غير كعب، عارفين ولا حسيت بكل ده وكأني في حلم، وتواصل وهو ده كل اللي حصل، عشان كده أنا عايزاكم تقولولي هتعملوا إيه بعد اللي انتم سمعتوه ده؟

فيرد زبادي: انتي إيه رأيك يا وردة نعمل إيه؟ وانت كمان يا سيد. فيرد سيد قائلاً: والله مانا عارف إذا كان اللي حصل مع وردة ممكن

يكون فتحة خير وطاقة أمل لينا كلنا، ولا يا دوب يكون شعلقة زي غيرها بمجرد ما نتشعلق فيها إيدينا تفلت ونقع على جدور رقبتنا؟

فيقاطع زبادي: وانتى يا وردة؟ فترد وردة: أنا بصراحة شايفة إنها فرصة استحالة تتكرر تاني، وخير وجاي لحدنا. فيرد زبادي: إزاي فرصة وخير لينا هو إحنا أهل الشحات ولا حتى من قرايبه؟ تبقى فرصة إزاي؟ يكونش رأيك نروح مثلا نقتله وناخد الفلوس ونعيش بفلوس مش بتاعتنا؟ يعني تبقى دنيتنا كلها حرام في حرام وآخرتنا على جهنم عدل.

فتقاطع وردة: ومين قالك إن إحنا نعمل كده؟ لو كنت أقصد اللي انت بتقول عليه ده كنت هجمت عليه وكتمت نفسه في العشة وسيبته جثة وجبت الفلوس وجيت وهو راجل لا حول له ولا قوة، دا المسكين بيطلع النفس بالعافية، يمكن لو نفخت فيه جامد يموت من النفخة، لكن أنا ماعملتش كده عشان ده حرام ومايرضيش ربنا.

فيرد زبادي مبتسمًا في تلك المرة وسائلاً وردة: أمّال نعمل إيه بالظبط؟ ياريت تفطمينا يا وردة ألا الواحد من اللي سمعه تفكيره اتشل ودماغه وقفت ومش عارف أعمل إيه.

وهنا تقول وردة: أكيد الشحات ده ماعندوش حد يسأل عنه ولا يدور عليه، يعني لا ولاد ولا بنات، وهتقولولي إزاي عرفتي إنه ماعندوش حد هقولكم لو كان فيه كانوا أخدوا فلوسه أول بأول

وماكنتش هتلاقي معاه إلا مية ولا متين جنيه بكتيره إيراد يوم ولا نص يوم.

وبعدين كمان الراجل عارفنا أو عارفني وبقلبه ولما دعا لنا دعا من قلبه برضو، يعني فيه عاطفة متبادلة ولينك بينا وبينه يا زبادي، وشوف انت مثلا زعلت قد إيه وكان باين عليك لما رحنا ومالقناش الراجل، حتى إنك مارضتش تدور على أبوك اللي هو لحمك ودمك بسببه، وكمان مارحتش شغلك واللي حصل ده يأكد اللينك اللي بينا وبينه.

فيقاطع زبادي قائلاً: كل اللي انتى قلتيه ده صحيح، لكن عمره ما يديكي الحق أن انتي تاخدي حاجة مش بتاعتك وفلوس مش ليكي. فترد وردة: ومين قالك إن إحنا هناخد فلوسه؟ إحنا هنروح نقعد مع المسكين ده في عشته دلوقتي أو حتى خلينا لبعد المغرب ونعرض عليه ييجي معانا ويعيش وسطينا ونجيبله هدوم جديدة ونخدمه بعنينا كمان زي أبونا، وبعد كده نقترح عليه نعمل مشروع باسمه وبفلوسه أو حتى بنصها زي مايشوف هو.

فيقاطع سيد قائلاً: زي ما يشوف هو إزاي؟ انتي مش بتقولي نظره على قده؟ فيقاطع زبادي موجها كلامه لسيد: اسمللله عليك انت يابو ستة على ستة. ثم يوجه كلامه لوردة قائلاً: وافرضي عرضنا عليه وماوافقش يبقى موقفنا إيه؟ فترد وردة: مش عارفة ليه إحساسي بيقولي إنه هيوافق. فيرد زبادي: زي برضو إحساسك

ماقال لك قبل كده إن إحنا هنلاقي أبويا وادينا بقالنا أكتر من شهر بنلف وندور وماحناش لاقيين حاجة.

فتقاطع وردة زي ما بقولك يا زبادي متسخرش من كلامى والله أنا إحساسى عمره ما كدب عليه وإن شاء الله هنلاقي أبوك وكمان الشحات هيوافق وهييجي معانا وإذا محصلش تبقى ساعتها تقول عليا زي ما تقول واستاهل أي حاجة تعملها فيا. فيرد زبادي: أعمل فيكى إيه بس دا انتى البلسم وانتى الأمل اللي رجع فيه الحياة من جديد ومين يقول غير كده. ثم يواصل: أنا معاكي ياوردة، وبعد المغرب هنروح سوا للشحات وعلى فكرة أنا كان عمري ما روح مشوار زي ده لكن برضو اللي شجعني إحساسك. عندها تقول وردة: أنا عارفة إن حبيبي معايا ومقتنع بكل اللي قلته. ثم تواصل: انت عارف يازبادي أنا حقيقي خايفة على الشحات، الراجل ممكن يموت في أي لحظة وساعتها فلوسه أكيد هتروح لناس مايستاهلوهاش، ممكن يشربوا ويشموا بيها أسبوعين تلاتة وبعدين يدوروا على جثة تانية يقلبوها بعد ما يخلصوا على الأولانية.

ويقاطع سيد قائلاً: انتم مش هتاخدوني معاكم ولا إيه؟ فترد وردة: إزاي ناخدك وانت تعبان كده يا سيد؟ دانت على الأقل والمفروض تريحلك أسبوعين ولا حاجة لحد جرحك ما يلتئم. وعندها يقاطع زبادي ويوجه كلامه لسيد قائلاً: وانت لو حتى سليم ماكناش هناخدك معانا.

فيرد سيد: يا زبادي انتم بتقولوا أن الراجل نظره على قده كنت أنا أسحبه من إيده وانت ووردة تمشوا مع بعض ورانا ولا انت ماعندكش ثقة فيا يا زبادي إياكش نسيت مين جابك سحب من محطة السكة الحديد لحد هنا، ولا نسيت أيام الجيش والصول عبد السميع، يا زبادي إن كنت ناسي أفكرك.

فيقاطع زبادي: برضو هتفرم يا سيد؟ أولا بالنسبة لموضوع الجيش أنا كنت في سرية وانت في سرية تانية خالص! وكمان الصول بتاعنا كان اسمه زيدان مش عبد السميع! ثانيًا بالنسبة لكلامك إنك جبتني من محطة السكة الحديد، إحنا جينا يومها في تاكسي ونزلنا قدام البيت بالظبط حتى انت قلتلي ناخد ميكروباص أرخص قلتلك لا مش مهم الفلوس لأنى عارف إن الميكروباص هينزلنا أكيد بعيد عن شارعكم وساعتها أنا اللي هسحبك وأنا مش عارف مكان بيتك فين وكنت هتحيرنا أكيد، بطل فشر يا سيد وخليك في عملياتك وجفتاتك. وتقاطع وردة: الوقت اللي إحنا فيه يا جماعة عايز جدية وتفكير، مش هزار وتنكيت.

وبالفعل وبعد العشاء مباشرة ذهب زبادي ووردة إلى حيث عشة الشحات لكن المفاجأة أنهما لم يجداه بعشته وأثناء وقوفهما حيرانين مندهشين إذا بإحدى النساء تسألهما قائلة: في حاجة ولا إيه يا شابة انتى وهو؟ فترد وردة قائلة: لا مفيش بس.. فتقاطع: بس إيه يا شابة فيه إيه؟

عندها يتدخل زبادي قائلاً: إحنا كنا جايين نشوف الشحات اللى كان في العشة هنا. فتقاطع السيدة والتي يبدو أنها جدا غتيتة مرة أخرى: وانتم مين بقى يا ترى؟ قرايبه.. ولا عياله؟ فيجيب زبادي: إحنا قرايبه. فتقول السيدة: ولما انتم قرايبه سبتوه العمر دا كله ليه؟ فتقاطع وردة قائلة: يا ستي إحنا بنسأل حضرتك هو راح فين؟ فترد الست متهكمة على كلام وردة: حضرتى بتقولك إنه مات النهاردة المغرب يا شابة. فيقاطع زبادي السيدة متسائلا: وهو فين دلوقتي؟ فترد السيدة: هو عند سي عيد في الحارة اللي في الوش تالت بيت على إيدك الشمال، الله يديه الصحة سي عيد ويفاديه من كل رضي هو وأخته، عدى عليه سمعه وهو بيقول آه الحقوني، دخل العشة خده وسنده ويادوب وصل معاه البيت والسر الإلهي طلع الله يرحمه بقى.

ثم تكلم السيدة نفسها وهي تدخل بيتها قائلة: قال قرايبه قال، ولما هما قرايبه مايجوش إلا يوم وفاته؟ سابوه طول العمر وجاينله في آخر دقايقه لكن سبقهم قبل ما يشفوه يمكن وأكيد مش عايز يشوفهم، دا إذا كانوا قرايبه فعلا. ثم تواصل قائلة: ولا يكنش جايين عشان يحضروا خارجته؟ حكم.

وعندها يخرج زبادي وردة من دهشتها قائلاً لها: شفتي وعرفتي إن الدنيا دي أقدار؟ تبقى في إيدك وتقسم لغيرك، وبعدين إيه رأيك في إحساسك اللى عمره ما بيكدب أبدًا؟

فترد عليه وردة: مش هقول وأعيد في موضوع إحساسي ده لأني متأكده منه، لكن مش ده موضوعنا دلوقتي. فيرد زبادي: بلاش مكابرة يا وردة ياللا بينا من هنا.

فتقاطع وردة: ماينفعش يا حبيبي وإزاى واحد ياخد مليون جنيه على الجاهز وكمان الناس بتدعيله؟ فيرد زبادي: بتفكري في إيه يا وردة؟ فترد وردة على زبادي قائلة: لازم نروح لسي عيد ده ونشوف الموضوع إيه على الأقل ممكن نقسم معاه هو نص مليون واحنا نص مليون، لكن الموضوع يمكن يكون أكبر من الفلوس وأكبر من أي حاجة تانية أنا حاسة بكدة.

فيرد زبادي: تانى إحساس يا وردتي؟ وبعيد عن إحساساتك واللى طبعا مبتكدبش أبدًا وبعيد عن كلامك أن الموضوع يمكن يكون أكبر من الفلوس، أمّال إيه اللى طلعنا من بيتنا وجابنا هنا إذا مكنتش الفلوس؟ وبعدين إحنا بأمارة إيه ناخد النص مليون؟ فترد وردة وتقول: والله يازبادي مانا عارفة أوصل لك اللى جوايا إزاي، بلاش حكاية إحساس دي عشان بتزعلك، خليها حاسة سادسة، مش بيقولوا أن فيه ناس كده؟ اعتبرني واحدة من الناس اللي عندها الحاسة السادسة دي وريح دماغك.

أما من ناحية بأمارة إيه ناخد نص مليون مش من حقنا، أنا هرد عليك وأقولك أمال سي عيد ده بأمارة إيه ياخد مليون جنيه؟

وهنا يسأل زبادي: طب قوليلي بأي حجة هندخل على اللي اسمه عيد وهنقوله إيه واحنا مين وإيه علاقتنا بالشحات أو بالمرحوم؟ فترد وردة: أنا عندي فكرة كويسة إحنا ندخل على أساس أن انت ابن المرحوم وأنا مراتك، وساعتها نعيط ونولول ومعانا ما يثبت إن الراجل الشحات اللي مات ده أبونا، والدليل اللي معانا إن الشحات كان معاه مليون جنيه ودي ماحدش يعرفها غيرنا وأنا متأكدة من كدة لأن لو حد تاني عارفها كان خد الفلوس وفي التو واللحظة، تاني حاجة يروحوا يسألوا بتاع الكشك لما كنا بنروح نسأل عليه، وتالت حاجة أنا النهاردة رحت له في الصبح وشقرت عليه، ورابع حاجة أدينا جينا بالليل أهو نطمن عليه زي عوايدنا قابلتنا ست تخينة وطويلة شبه وابور الفحم بيتها في وش العشة قالت لينا إنه مات الله يرحمه ووصفت لنا بيت سي عيد وعشان كده جينا.

فيقاطع زبادي مترددًا: طيب ولما يشوفوا البطايق ونطلع إحنا مزورين ونروح السجن؟

فترد وردة: ماتخافش خالص من الموضوع ده عشان أكيد إن الشحات لا معاه بطاقة ولا دياوله، ولو فرضنا إنه معاه بطاقة وعرف سي عيد إن إحنا مزورين عمره ما هيقدر يبلغ عارف ليه؟ لأنه لو بلغ إحنا ساعتها هنقول على حكاية الفلوس وإن الشحات كان معاه مليون جنيه يبقى ساعتها الحكومة هتصادر المليون، يبقى سي عيد بتاعك ده زينا بالظبط لا طال عنب الشام ولا بلح اليمن، يبقى المفروض والمنطقي إيه اللي يعمله لو عنده مخ إنه يستفيد

ويطلعله بنص مليون أحسن مليون مرة من مفيش، واحنا كمان نستفيد بنص مليون.

فيقاطع زبادي قائلاً: دانتي عليكي حتة مخ، يخرب مطنك. فترد عليه مبتسمة: لا يا حبيبى مش مخ دا إحساس.

يللا بقى نحضر نفسنا ونستعد كده قبل ما ندخل لأن المشهد اللى جاي كله دراما وأدوارنا فيه مركبة وعايزة تمثيل كأنه الحقيقة وأظن إن إحنا الاتنين بنتقن الدور ده كويس يا حبيبي مش عشان أن إحنا خريجن معهد تمثيل ولا دارسين مسرح أبدًا دا عشان طول عمرنا حياتنا حزينة وكلها دراما ومن يوم ولادتنا وهمومنا مالية قلوبنا، مش جايز يا زبادي ربنا يكرمنا ونقب بقى على وش الدنيا؟ فيقاطع زبادي قائلاً: فكرك ده هيحصل يا وردة ونقب على وش الدنيا زي ما بتقولى؟ وكمان نلاقى أبويا ويتجمع شملنا تاني ياوردة؟ فترد عليه وردة قائلة: ولو إنك هتتضايق مني يا زبادي لكن والله إحساسى بيقول كده.

وعندها يضحك زبادي من قلبه مقهقها فتضع وردة يدها على فمه وتقول له: اقفل بقك يا زبادي هتودينا في داهية إحنا بنقول دراما مش كوميدي. وبالفعل يكتم زبادي ضحكاته استعدادا لما هو قادم.

وفى منزل عيد والذي هو كما منزل وردة وزبادي وسيد وربما أكثر تواضعًا فهو يشف بحالة ساكنيه ووضعهم المأساوي حيث دخل زبادي متظاهرًا بالحزن والأسى ومن خلفه وردة تبكي وتسأل: فين

عمى؟ فين المرحوم؟ فيرد عليها عيد قائلاً: انتم مين؟ وعمك مين يا أخت؟ ومين المرحوم اللى تقصديه؟

فيقاطع زبادي قائلاً: أنا زبادي ابن المرحوم. ويشير إلى وردة قائلاً: ودي مراتي. فيرد عيد: انتم قصدكم على مين بالظبط؟ ثم يواصل: يكونش تقصدوا الشحات؟ فترد وردة: أيوه عمي الشحات أبو جوزي. فيرد عيد قائلاً لوردة: عمك الشحات ماماتش انتم بتبشروا عليه ولا إيه؟ وعندها ينظر زبادي إلى وردة وكأنه يسألها كيف الخروج من تلك الورطة التي لم تكن في الحسبان؟ ولم تخطر على بالهما قبل دخول المنزل وبالتالى لم يخططا لمواجهتها لأنهما دخلا منزل عيد على أساس أن الشحات متوفى، فكيف سيكون حالهما إذا كان الشحات حيًا يرزق؟ إذًا من المؤكد أنه سينكرهما وسيفتضح أمرهما.

لكن عيد لم يعطِ زبادي فرصة للتفكير، حيث فتح باب الغرفة وقال لزبادي: خش ياسي زبادي اطمئن على والدك. وعندها يتلعثم زبادي ويقول: مافيش داعى أدخل طالما هو بخير، الحمد لله أنا اطمأنيت عليه خلاص. وينادى زبادي على وردة: ياللا بينا يا وردة، الحمد لله جينا واطمأنينا عليه. ويهم زبادي خارجًا على أن تتبعه وردة، ولكن وردة لا تتحرك من مكانها، بل تقول لزبادي وبكل جرأة وثبات تحسد عليهما: نمشى إزاي يا زبادي من غير ما نطمن على أبوك؟ وتواصل: ادخل ياللا شوفه انت الأول وبعدين آجي أنا.

ويتردد زبادي ثانية وتتثاقل خطواته وهو ينظر لوردة بغيظ حيث يرى أنها السبب فيما هو فيه من ورطة ووضع لا يحسد عليه.

وعليه يبدو على عيد أنه قد شك وارتاب في الأمر، وعليه دفع زبادي ليدخل الغرفة، لكنه دفع رقيق بلا عنف أو شدة وهو يقول له: جرا إيه يا راجل انت مكسوف تشوف والدك ولا إيه؟ وذلك حتى يدخل الغرفة ويلتقي من يدعى أنه والده، ويكمل عيد: هو ده اسمه كلام؟ ادخل يا راجل ادخل. وعليه أصبح زبادي شحمًا ولحمًا في غرفة الشحات أو الغرفة التي ينام فيها الشحات.

ووجد زبادي نفسه فجأة وحيدًا مع رجل غريب لا يعرفه، وعندها أيقن تمامًا أن الأمر سينكشف حتمًا إن لم يكن قد انكشف فعلا كما رأى من عيد وهو يلح عليه من أجل الدخول، بل إنه جذبه ودفعه إلى داخل الغرفة، وعليه جلس زبادي المسكين بجانب سرير الشحات مطأطئ الرأس لا يدري ماذا يفعل وكيف سيكون تصرفه بعد اتضاح الأمر وانكشاف الحقيقة.

وإذا بالشحات الملقى على السرير يتحرك بطيئا ويستمر في تحركه حتى يستدير ويواجه زبادي، وعندها يخفى زبادي وجهه خوفا من افتضاح أمره والذي كما يبدو له قد افتضح فعلا، لكن تبقى فقط رتوش التفنيشات النهائية والتي يعتقد زبادي أنها ستكون أسوأ تفنيشات ونهايات لا محالة.

لكن الشحات ما يلبث أن يسأل بصوت خافت: مين اللي هنا ده؟ ثم يواصل: أنا شامم ريحة ابنى. وعندها يجد زبادي أن صوت الشحات حتى وإن كان خافتا لا يسمع بوضوح إلا أنه صوت تعوده كثيرًا بل تربى على سماعه وليس غريبا أبدًا عليه، وعندها يتشجع زبادي وينظر في وجه صاحب الصوت.

فاذا بالشحات يقول: ابنى زبادي؟ ويرد زبادي: أبويا؟ ويسمع البكاء والنحيب جليًا بالصالة وكأنه زلزال، وبالطبع لم يكن كذلك بل كان لقاءً حميمًا وأشواقًا وقبلات على الجبين وأحضانًا، وعندها تتملك الدهشة عيد وأخته نجية ووردة، وكان لابد أن تدخل وردة إلى زبادي لتستطلع الأمر وتهدئ من روع زوجها الممثل البارع والمشخصاتي القدير، وبعد دخولها الغرفة تهمس في أذنه قائلة: انت ممثل رائع، بل أنت الروعة نفسها. وتواصل وردة: والله اللي يشوفك كده يقول إن الشحات فعلا أبوك.

فيرد عليها زبادي: والله أنا ما بمثل أبدًا ولا عمري كنت أعرف التمثيل، أنا عشت حياتى كلها حقيقة، والحقيقة بتقول إن اللي قدامك ده يا وردة أبويا فعلا، ده عمك خليفة عجب، ويكرر: والله أبويا يا وردة.

وعندها تقول وردة: سبحان الله، صحيح الدنيا صغيرة، مين كان يصدق؟ لكن الحمد لله إن إحساسي ماخذلنيش، مش قلتلك يازبادي إحساسي مايكدبش أبدًا؟ وتنكفئ على حميها تقبله فإذا به.

يقول لها: الملاك الطاهر؟

ويواصل: انت الملاك اللي شفته من تلات أيام.

فيقاطع زبادي والدموع تملأ عينيه قائلاً: عارف مين دي يابا؟ دي وردة مراتي. فيرد الشحات قائلاً: والله كان قلبي حاسس من يوم ما شفتها، الوردة الجميلة الحلوة. وبالفعل تنقلب الأجواء وتتبدل الأحوال من الدراما والدموع إلى الفرحة والسرور باللقاء وما حمله من مفآجات لم تكن أبدًا في الحسبان، بل لم تخطر على بال أي أحد.

ويقف عيد وشقيقته نجية يراقبان الموقف من خلال باب الغرفة مندهشين مما يحدث أمامهما وكان واضحا أن عيد هو الأكثر دهشة واستغرابًا وهو يرى دموع الأب والابن وزوجة الابن، بالرغم من أن عيد كان قد شك في الأمر من بدايته وعليه كان إصراره على دخول زبادي للغرفة لمواجهة الشحات وجها لوجه حيث مرقده في الغرفة، بل إن عيد دفع زبادي دفعًا ليفتضح أمره وأمر من يقول إنها زوجته والتي تدعى وردة.

لكن ما يراه الآن عيد ونجية أمامهما هو قمة المفاجأة، وعلى ضوئها تغيرت المفاهيم والتي أطاحت بكل الظنون والشكوك بعيدًا إنه مشهد درامي لا يضاهيه أي مشهد آخر، إنه الواقع والحقيقة التي لا تقبل الشك، وها هو المتشكك منذ لحظات الآن تمتلئ عيناه بالدموع وأخته كذلك،

وأثناء استغراق عيد وأخته في دهشتهما وهما في قمة الذهول والتعجب، إذا بالمفاجأة الأكبر، فالشحات يقف على قدميه دون مساعدة سليمًا معافى ويخرج من باب الغرفة إلى الصالة محتضنا ابنه وزوجته، ينظر ويتأمل ممنونا إلى عيد ونجية إذ يبدو أنه يشكرهما بنظراته ويعبر لهما عن جزيل شكره وامتنانه.

عندها يخرج عيد من اندهاشه ويشارك الناس فرحتهم ويقول: ألف سلامة يا عمي رجعت زي الفل سبحان الله، رجعت شباب تاني. فيرد عليه الشحات مبتسما قائلاً: ألف شكر ليك يا عيد يابني وألف شكر لنجية أختك بنت الأصول، وعمري ما هقول من لقى أحبابه نسي صحابه، لأن حبايبي هم صحابي وصحابي هم حبايبي، وحبايبى وصحابى هم ولادي اللي قدامي كلهم.

وبينما الجميع يغمره الاندهاش والتعجب وتلفهم الحيرة والترقب إذا بوردة تقول لزبادي: ياترى يا زبادي إيه رأيك في إحساسي؟ عرفت وتأكدت إنه مابيكذبش أبدًا؟

فيرد زبادي أنا أبصملك بالعشرة أن انت عندك حق في كل كلمة قلتيها، بس ماتنسيش برضو إحساسى أنا، وأظنك شفتينى ساعة ما زعلت واكتئبت لما مالقناش الشحات في مكانه، وكمان قلتلك ياللا بينا مش هندور النهاردة على أبويا واستمر الاكتئاب معايا لتاني يوم، حتى لدرجة إنى مارحتش شغلى من زعلى وإحباطى، يا تري زعلى واكتئابى ده ممكن يكون سببه واحد شحات ماعرفوش ولا عمري شفته؟

طبيعي إنه يحصل ويكون، يا ترى تفسير ده إيه مش أكيد إحساس برضو يا وردتي؟!

وعلى فكرة يا وردة، أنا لو في الظروف العادية، يعني لو ماكانش جوايا حاجة بتشدني وتمشيني في طريق وكأني مسلوب الإرادة تأكدي يا وردة عمري ماكنت أبدًا هطاوعك وآجي معاك للعشة ولا كنت عمري هطاوعك وآجي بيت عيد، إوعي تكوني مفكرة إن انتى اقنعتيني، لا والله أبدًا مش اقتناع ده إحساس يا وردة يمكن أقل من إحساسك عشان انتي عندك الحاسة السادسة والحاسة السادسة مفيش بعدها، حتى لو كان إحساسي وفي المرة دي بالذات يمكن يكون قريب منك شوية يمكن عشان والدي. ويواصل زبادي: أنا كنت باجادلك في الكلام ووافقك حبة وأرفض حبة، كل ده عشان مايبانش قدامك إن أنا تابع وزي ما بتقوليلي بنفذ على طول. فترد وردة: أنا كنت متأكدة والله وعارفة، لأنك كنت تتكلم وترفض وبعدين توافق بعدها على طول وأنا متأكدة إن ده مش طبعك اللى أنا عارفاه كويس واللى حصل منك ده معايا هو اللي شجعني أكتر وخلاني أمشى ورا إحساسي وانا مطمئنة ومتيقنة.

فيقاطع عيد: يا جماعة إحنا مش فاهمين حاجة، ياريت تفهمونا إيه حكاية الأحاسيس دي. فيبدأ زبادي في سرد الرواية ومنذ مجيئه إلى القاهرة وما حدث له وما صادفه حتى وصل هو ووردة إلى منزل عيد.

❊ ❊ ❊

١٠

يقول عيد: سبحان الله، يعني العملية في أولها كانت حبة فبركة على شوية فهلوة لكن رغم كدة كان الإحساس هو الغالب وهو ده اللي خلاكم تمشوا طريق عمره ما كان يخطر على بال حد أبدًا.

لكنه مع صدق الإحساس كان هو الطريق الصحيح واللي من خلاله وصلتم لهدفكم وقابلتم اللي انتم بتدوروا عليه، جايز تكون الصدف ساعدتكم والأقدار وقفت معاكم وده شيء لا جديد ولا غريب، ومن الطبيعي يكون كده عارفين ليه؟ لأن الغرض شريف والنوايا صافية وصادقة، وسبحان الله مانقدرش نقول غير كده وأكيد دي إرادة ربنا، وكمان على فكرة يا زبادي أنا عايز أعترفلكم بحاجة وسامحوني في سوء ظني، أنا كنت شاكك فيكم في الأول.

فيرد زبادي: بتتأسف على إيه وانت معاك الحق يا عيد كان لازم تشك فينا، دا الغير طبيعي إن انت ماتشكش فينا. ثم يواصل زبادي: منها لله الست اللي عاملة زي وابور الجاز اللي قالت لينا أبوكم مات عند سي عيد. فتقاطع وردة قائلة: منها لله إيه يا زبادي؟ قول كتر خيرها، يمكن لو ماقالتش كده ماكناش جينا بيت عيد وحصل اللي حصل. فيقاطع عيد سائلا: انتم بتتكلموا على مين؟

فيرد زبادي: على الست اللي بيتها جنب العشة على طول.

فترد نجية: هي سمرا وجرمة شوية؟ فترد وردة: آه بس جرمة حبتين مش شوية. فيرد عيد ونجية وخليفة معًا: أم الزنكلوني!!

ويكمل عيد: دي ست طيبة بس يعني فيها شوية غتاتة. فيقاطع زبادي: شوية إيه يا عيد قول فيها فنطاس غتاتة !

ويقاطع خليفة والذي يبدو أنه لم يكن يعانى من أية أمراض عضوية على ما يبدو، لكنها ربما كانت سيكولوجية ونفسية، لذا زالت في التو واللحظة بمجرد رؤيته لولده وزوجة ولده، ويقول خليفة: تعرف يا زبادي يابنى إن عيد وأخته عملوا معايا اللي مش ممكن حد يعمله، ياما أكلوني وشربوني وكل ملابسي من عندهم ويغسلوهالي أسبوعيًا ولو حسيت بأي حاجة كان يجيبلي علاجات، وآخرها الليلة لما تعبت فجأة جابلي دكتور كشف عليه وصرفلي الروشتة كمان.

فيرد زبادي: الحمد لله يابا ربنا رزقك بابن عوضك عني ويمكن لو أنا كنت معاك ماكنتش عملت زي عيد ماعمل معاك، وكمان أخته الله يجازيها كل خير وعشان كده إحنا كلنا أسرة واحدة ومش هنسيب بعض أبدًا، وياريت ربنا يقدرنا ونقدر نرد جزء من جمايل عيد ونجية.

فيقاطع خليفة: أنا أبوكم كلكم؛ زبادي ووردة وعيد ونجية.

فيقاطع زبادي قائلاً: انت نسيت واحد كمان، نسيت سيد أخو وردة.

فيرد خليفة: أخو الملاك الحلو الجميل ده أكيد ابني هو كمان.

فيزيد زبادي ساخرًا: جرى إيه يابا انت بتعاكس مراتي قدامى ولا إيه؟

ويواصل زبادي: طب المرة اللي فاتت مسكت إيديها ربع ساعة وعديناها، خف شوية يابو زبادي، فيرد خليفة: مافيش فايدة فيك يا ولد زي ما انت ماتغيرتش، انت ماكانش ليك الملاك الجميل ده، انت كان توبك أم الشحات الله يرحمها، فتقاطع وردة قائلة: دانت كلامك جميل ولذيذ ياعمى. فيرد زبادي: دانتوا الاتنين عليا بقى. وعليه يضحك الجميع ويزيد زبادي: على فكرة يابا سيد أخو وردة هيعجبك قوي، ورغم أنه كفيف لكن ابن نكتة وظريف ودمه خفيف ماتشبعش من قفشاته زي حالاتك كده، وآه من مقالبه وحركاته، تتصور يابا كان ساعات بيروح يدور عليك معانا وكان يقولى اوصفلى أبوك مظبوط وانا أجيبهولك مهما كان فين.

فيرد خليفة: أخو الوردة الجميلة الحلوة عمره ما يبقى شوك أبدًا، لكن أكيد أنه يكون فل ياياسمين. فيقاطع زبادي: بقى أنا أوديك لسيد عشان تفكك من وردة مفيش فايدة فيك يابو زبادي!

ثم ينظر زبادي إلى عيد ونجية ويقول: بس أنا عندي سؤال محيرني، انتم ليه عملتوا مع أبويا كده رغم عدم سابق المعرفة بينكم وبينه، وكمان دونا عن كتير من الناس؟

فيجيب عيد قائلاً: بص يا زبادي أولاً أبوك كان جار وانت عارف أن إحنا أصلنا ريفي، وكنت متأكد إن مافيش حد هياخد باله منه، عشان الناس كلها غلابة وكل واحد عنده مشاغله وأشغاله،

ثانيًا يا زبادي اللي داق الظلم وعاشه ممكن بيتزرع جواه رحمة وحب من غير ما يدرى ومن غير ما يحس،
يمكن المفترض والمنطق بيقول إنه يكون جواه غل وحقد على المجتمع اللى ظلمه، لكن معانا الحمد لله اتقلب الغل لحب لأن أبويا زرعه جوانا من زمان واحنا صغيرين، وكمان وهو بيموت كان بيوصينا أن إحنا دايما نمد إيدينا بالخير لغيرنا، ورغم أن إحنا كنا محتاجين اللى يمدلنا إيديه لكن ربنا سترها معانا ووقف جنبنا في كل محنة وضيقة.
وعندها تسأل وردة نجية: ظلم إيه ياختي اللى انتم اتعرضتوله واللى أخوكي بيقول عليه؟ فترد نجية: أقولك إيه يا وردة دا موضوع يطول شرحه، وتواصل نجية: إحنا انطردنا من بلدنا وسيبنا بيتنا ومحلنا عنوة وعافية وخرجنا يادوب بالهدوم اللي علينا، ورغم إن أنا كنت عيلة صغيرة لكن عمري ما رايحة أنسى طلعتنا وبهدلتنا وحيرتنا واللى شفناه حتى لما كمان جينا مصر. وتواصل نجية قائلة: يمكن أخويا عيد يكون عارف الموضوع أكتر منى عشان هو الأكبر.
فيكمل عيد كلام أخته قائلاً: أيوه منه لله الطاغية اللى طردنا وأخد دارنا وصالون الحلاقة بتاع أبويا، وبسبب إيه؟ من غير سبب قال أبويا الله يرحمه قال نكتة أخو الطاغية فضل يضحك على النكتة بهستريا منعرفش سبب ضحكه إيه من حلاوة النكتة ولا من هطله الله يرحمه بقى ويغفر له، المهم أنه مات من الضحك زي ما بيقولوا، قال إيه يبقى أبويا اللى موته.

وعندها يقاطع خليفة وزبادي معًا: هو أبوك فتوح الحلاق! وعندها يكون الذهول لعيد ونجية ويردان في نفس واحد: وعرفتم اسم أبونا منين؟

ويقاطع زبادي: أنا زبادي يا نجية ابن خالتك انشراح الله يرحمها، وأبويا عمك خليفة اللي قاعد قدامكم ده. ويواصل زبادي: أيوه أنا افتكرت عيد صحيح كان أكبر مننا بشوية لكن نجية كنا بنلعب سوا. وعندها يقف عيد ونجية مرة أخرى ويعانق عيد زبادي وتعانق نجية العم خليفة، ثم تعانق وردة قائلة لها: انت وش السعد انت اللى جمعتي الشمل.

ويعلق زبادي: أنا مش عارف إزاي مالفتش نظري اسم عيد واسم نجية؟ يمكن عشان فرحتي بأبويا ولا عشان جاني زهيمر بدري زي أبو المكارم!! فيقاطع خليفة زبادي قائلاً: إلا أخبار عمك أبو المكارم إيه يا حبيبي؟ فيرد زبادي: والله حاله مايسر عدو ولا حبيب. فيرد خليفة: لازم تروحله يا زبادي وتشوفه وتشوف هو محتاج إيه وتعملهوله، دا مهما كان عيش وملح وقرابة. فيرد زبادي: إن شاء الله هنروح له بس معاك يابا.

فيرد خليفة: بلاش أنا يا بني، ابقي خد عيد معاك هما أكيد هيعرفوا بعض على طول، وابقى سلملي عليه كتير. فيرد عيد وزبادي: وليه ماتجيش معانا؟ فيجيب خليفة: ماينفعش يا ولاد، وسيبوها على ربنا.

حقا إنها أسر بسيطة طيبة، تتعامل مع كل الأمور ببساطة وتلقائية، فنجد عيد يعطف على الشحات طوال سنوات ولم يسأله مرة من أنت أو من أي البلاد أتيت، كذلك الشحات خليفة لم يسأل عيدًا لماذا العطف عليه والاعتناء به؟ كذلك لم يسأل عيد زبادي عن هويته وبطاقته ليتأكد من صدق نواياه.

لكن هؤلاء البسطاء وكما أشرنا تحكمهم أقدارهم وتحركهم الصدف والمقادير ليكون الزمان والمكان هو قدرهم ولا يد لهم فيه، ويكون اللقاء صدفة لم تكن أبدًا في حسبانهم ولم تخطر لهم على بال.وبعد أن تذكر الجميع كل الأحداث الماضية وما قام به الطاغية الورداني وزبانيته من فساد وإفساد وظلم وجبروت، وما حدث لفتوح الحلاق الرجل الطيب وبعدها ماحدث لخليفة وولده زبادي أيقنوا كلهم أنها الأقدار والصدف، لكنهم موقنون تمامًا أن الأقدار مقدرات ستقع أحداثها حتما كما حدث الليلة، كما أنهم يؤمنون بأن الصدف لا تأتي دومًا إلا لمن يستحقها، وكم من الصدف مرت بهم في تلك الليلة المشهودة لم تكن تخطر على بال أي منهم.

وبالطبع لا يمكن أن ننكر إحساس وردة وإن كان هناك من هو أكثر استشعارًا وتنبؤًا منها، وقد يكون من نفس المجموعة التي تجمعها تلك الجلسة الآن، وسنرى وربما سنتأكد لاحقًا، ونعود الآن لإحساس وردة والذي لم يكذبها أبدًا، فقد كانت متيقنة متأكدة من صدق إحساسها هذا حتى وإن عاندتها الظروف أحيانا.

حقا كم أنت صغيرة أيتها الدنيا المترامية الأطراف الممتدة بلا نهايات، لكن زبادي ما لبث أن قاطع ليخرج الجميع من دهشتهم، تلك الدهشة التي تكررت كثيرًا في تلك الليلة.

حيث قال زبادي موجها كلامه للحضور: فيه حاجة مهمة جدا نسيت أقول لكم عليها من كتر فرحتي بأبويا وبعيد ونجية، وكمان بصدق إحساس زوجتي واللي كنت متأكد ومن جوايا إنه إحساس صادق، بس كنت بقاوح معاها حبا ومناغشة وخوف عليها من الغرور. ويواصل زبادي: عارفين بقى إيه هي الحاجة المهمة اللي انتوا لحد دلوقتي ماتعرفوهاش؟ الظلم والجبروت الطاغية الورداني خلاص بقى بح، بقي سراب ومر، انتهى هو وكل أسرته ومعاهم داعميه الكبار وزبانيته وأبضياته وبودي جارداته وكل كلابه المسعورين ومنافقيه وبالطبع فتاوي، حتى أم الشحات خدها في رجليه.

وعندما سمع خليفة وعيد ونجية ذلك من زبادي غطت السعادة والفرحة وجوههم وردوا معًا: الحمد لله ربنا كبير. وتملكتهم الدهشة، ربما للمرة العاشرة في ليلة المفاجآت وسرعة تتابع الأحداث، في ليلة الصدف والأقدار، في ليلة الفرحة وأشواق اللقاء.

بعد أن قص عليهم زبادي كيف انتهى ذلك الطاغية والجبروت سأل عيد ونجية عن حقيقة كرامات الشيخ صالح ودورها فيما حدث للطاغية،

وكان جواب زبادي وكما علمها من الشيخ نفسه أن تلك الكرامات ما هي إلا كرات اللهب التي طارت من بيت الشيخ والتي لم تكن أبدًا كرات وإنما هي مخلوقات وأرواح تطير مسيرة بأمره سبحانه وتعالى، وقبل أن يزداد استغراب عيد ونجية، وأخص بالقول عيد ونجية لأن وردة كانت على دراية بما حدث مسبقا من زبادي، وخليفة كان قد أدركها بقلبه ولم يكن في حاجة لسماعها.

وقبل أن يذهبا بعيدًا بخيالهما أخرجهما زبادي من دهشتهما قائلاً: إنها مخلوقات الله وجنوده، إنه الحمام الذي كان يجاور الشيخ في مرقده داخل بنيّاته الخشبية المعلقة فوق رأسه، إذ يبدو أن النيران قد طالته كما طالت كل ما في الدار، فطار الحمام المسكين متحاملا على نفسه لينجو بحياته، لكنه لم يتحمل النيران التي التهمته ليسقط مضحيًا بنفسه فوق مخازن الأنابيب وقصر الطاغية، وقد تسألاني لماذا لم يذهب الحمام إلى القرية ليحرقها هي الأخرى؟ والأجابة بسيطة.

وهي أن المسافة بعيدة والحمامة المشتعلة لا تستطيع أن تطير أكثر من عشرة أو عشرين مترًا قبل أن تموت، لذا رأيناها تسقط على كل مايحيط دار الشيخ ودار الشيخ لا يحوطها إلا قصر الباغي ومخازن أنابيبه، وكانت النتيجة ما رآه وسمعه الجميع من دوي وانفجارات وحرائق واشتعالات، لقد مات الحمام محروقا من أجلنا ومن أجل أن يخلصنا من الطاغي الجبار وكل زبانيته ومريديه،

ولكي ننعم نحن بالأمن والأمان، مات الحمام ليعيش ويبقى دومًا رمزًا ومعنى للسلام.

إن ما حدث ورأيناه باعيننا معجزة وآية ربانية لم تكن أبدًا في الحسبان ولم تخطر على بال أحد حتى رب الحمام ومربيه وصاحبه وراعيه، لأنها جاءت من عند رب رب الحمام، وبالطبع ما حدث أكبر وأعظم من أي كرامات أو معجزات تخص بشرًا أو إنسانًا.

وعندها قال خليفة: سبحان الله! من كان يصدق أن أرق مخلوقات الله وهي الحمامة تفعل كل تلك الأفاعيل بالظالم والطاغية وتضحي بنفسها وتتحمل ألمها وأوجاعها من أجل إنقاذ الغلابة والمطحونين؟

ويواصل: اللى حصل ده آية من آيات الله عشان الناس تتعظ وتثق أن الظالم مهما طغى وتجبر لابد من نهايته وباهون الأسباب.

وهنا يسأل عيد زبادي قائلاً: إلا دارنا لساها موجودة يا زبادي؟ وكمان دكانة أبويا الله يرحمه؟

وتقاطع نجية: نفسي أشوف دارنا، أنا لسة فاكراها وفاكرة شكل الباب ولون الحيطان وحديد الشباك والغيطان اللي كانت قصادنا ودكانة عمي صميدة الرجل العجوز.

ويرد زبادي: اطمئن ياعيد الحمام ماراحش ناحية داركم ولا قرب من جدي صميدة، داركم زي ما سيبتوها والمحل كمان وعمك صميدة العجوز لساه عايش وزي الحصان.

ويواصل زبادي: هو انتم فكركم أن الظالم المفتري كان محتاج داركم ولا دكانكم ولا عجلنا ولا معزة أبو نسمة ولا جاموسة عبود

وغيرها وغيرها؟ هو كل اللي كان عايزه يذل الناس ويشوف الكسرة في عنيهم والحسرة في قلبهم، لكن جات على أهون سبب وبإيده هو مش بإيد حد تاني مين كان يصدق إن جوزين حمام يقضوا على إمبراطورية وجبروت الورداني؟

والناس في البلد عمالة تضحك وتقول أمّال إيه كان هيحصل لو عمي صالح استخدم كل قواته لأنهم بعد الحرايق والانفجارات لقيوا معيزه وأرانبه ولا صابهم حاجة أتاري الأرانب لما حست بالنار هربت لجحورها ونجت، والمعيز كمان من نفس المكان اللي خرج منه عمي صالح خرجت وراه، يعني الحمام بس اللي ضحى بنفسه، لكن ما أجملها من تضحية.

وهنا تقاطع وردة: بس أكيد الحمام ماكانش هيضحي بنفسه ويعمل كل ده لو أهل البلد استنوا على وضعهم الأولانى ماليهم الخوف والجبن والخنوع، الحمام ضحى بنفسه لما شاف أهل البلد ابتدوا يتغيروا ويتحركوا، لما شاف الأمل من الخلاص ملا قلوبهم، ساعتها كان لازم الحمام يضحي بنفسه عشان اللى هيضحي عشانهم يستاهلوا التضحية فعلا.

وهنا تقاطع نجية وتقول: كلامك جميل قوي يا وردة وكله حكم وأنا معاكي في كل كلمة قلتيها، وكل معنى قصدتيه. ويرد خليفة قائلاً: أنا مش مبسوط عشان بس الورداني غار في داهية، أنا مبسوط عشان قبل ما يغور كانت الناس فاقت وحتى لو ماجتش من حمام صالح كانت هتيجي منهم وده ماكانش موجود خالص من خمس

سنين لما اتاخد عجلي قدام كل الناس وماحدش قدر منهم ينطق كلمة حق واحدة حتى العمدة، وانا مش بالوم الناس أو بقلل من العمدة لكن هو ده اللى كان موجود.

وعندها يقاطع زبادي قائلاً: العمدة كمان قدم استقالته وصمم عليها ولما طلبوا منه وقالوله خليك يا عمدة زي مانت وخلاص الظالم غار من الدنيا كلها، لكن الرجل ماغيرش رأيه وأصر على موقفه وقال إزاي أقدر أبص في عيون ناس شافتني وأنا مش قادر أقول حتى ولو كلمة حق واحدة أمام المقبور الورداني، لازم دم جديد مايكونش عاش سنين طويلة خيال مآتة زي حالاتي مايكونش اتعود المهانة والاستكانة، وفعلا الناس كلها احترمته على موقفه ده.

وأكمل زبادي: ولما عرضوا العمودية على عمي صالح برضو رفضها وقالهم عليكوا بالشباب هم الأمل وهم المستقبل. ويكمل زبادي: كمان كل شباب البلد اتلموا وعملوا حفلة جميلة كرموا فيها عمي صالح والشاب الغريب منشاوي اللي كان في زيارة لأخته العروسة الجديدة وكان تالتهم ولله الحمد العبد لله زبادي ابن خليفة.

وفي النهاية وبعد السهرة الجميلة الممتعة بكل أحداثها وأحداثياتها مال زبادي على والده قائلاً: يالا بينا نروح.

فرد الوالد: ماتستعجلش يا زبادي خلاص هانت كلها دقايق معدودة وهنروح، بس قبل ما أروّح كان فيه سؤال لازم أجاوب عليه وقدامكم كلكم، رغم إن مفيش حد فيكم سأله لكن أنا متأكد إن السؤال اللي أنا أقصده موجود جوا كل واحد فيكم، لكن ليه

مافيش ولا واحد سأله يمكن حياء وكسوف وللا يمكن مش وقته ولا ظروفه.

لكن أنا هجاوبكم على سؤال متسألش، عارفين ليه؟ عشان ماعدش فيه وقت. فيقاطع زبادي ومن معه من الموجودين: سؤال إيه بس اللى انت عايز تجاوبه يا بابا؟ خلي الأسئلة والإجابات والحاجات دى بعدين، الوقت قدامنا طويل نبقى نسأل براحتنا وانت تجاوب براحتك ولا متجاوبش دى حاجة رجعالك. ويواصل زبادي: مين إحنا عشان نسألك وتجاوبنا؟ خلينا زى ماحنا في فرحنا ولمتنا بعد السنين الطويلة اللى فرقتنا عن بعضنا.

فيرد خليفة: اسمعونى ياولاد كويس، مافيش وقت نضيعه، انتم طبعًا جواكم سؤال بيقول ليه انت امتهنت المهنة دي؟ وانا هقول لكم من البداية أنا جيت مصر ليه، عشان الظالم الباغي يوم ما أخد العجل عنوة وأنا رديت عليه بعض كلامه أمام كلابه وزبانيته اعتقد إن أنا كده اتجرأت كتير قوي وإني كمان عديت الخط الأحمر وكان لابد من عقاب ليه يذلني ويكسرني أكتر من اللي حصلي، والعقاب ده بالطبع ماكانش قتلي لأنه في عرفه لو قتلني يبقى ريحني وهو مش عايز كده طبعًا، عشان كده فكر في حيلة خسيسة هو واللي حواليه وكانت الحيلة دي هي قتل ابني وقدام عيني، ومالقيوش حل تاني غير كده حتى بعد ما جا في دماغهم يجوزوه أم الشحات، ماكانش جوازه منها هيمنع قتله أبدًا، كان

هيحصل اللي خططوا له الشياطين وكانوا مستنين بس بعد الزفاف قصدي التأبين.

عشان كده كان لازم أسيب البلد عشان ماشوفش ابني بيتقتل قدام عنيا مرتين مرة في زفافه على المختلة المسكينة عديمة الأهلية واللي أنا مش عارف المأذون كتب كتاب واحدة زي دي إزاي لأن جوازها باطل وماينفعش؟ لكن تلاقيه هو كمان وأكيد مايقدرش ينطق وإلا... وكان القتل في المرة التانية لما ينفذ اللي خطط له هو وزبانيته ويقتلوه قدام عنيا.

والكلام اللي أنا باقوله لكم دلوقتي ده مش كلامي دا الكلام اللي سمعه العمدة بودانه وقالهوله الورداني بنفسه، والعمدة رغم كل اللي كان فيه من عيوب لكن الحقيقة إن الراجل ماكانش يكذب أبدًا.

يعني الظالم كان ناوي يقتل ابني وقدامي وعشان كده أنا خليت الناس كلها تعرف إني هجرت البلد بلا عودة حتى جواسيسه وحراسه عرفوا بكده وكنت متعمد أوصلهم الكلام ده عشان بدورهم هيوصلوه للطاغية وطبعا كان لازم أخبي الكلام ده عن ابني، وعلمت كمان إن الظالم انبسط قوي لما قالوله إن أنا هجيت من البلد زي مايكون كان عاوز كده، يمكن ماكانش عاوز يرمل بنت أخته العبيطة بدري ولا لأنه اعتقد أنه ذلني بكده وخلاص وكفاية طردتي من البلد، لكن اللي أنا متأكد منه إنه كان مستني رجعتي

تاني وكان يتمناها عشان ينفذ وعده الخسيس واللي قاله قدام العمدة.

وعليه أمرهم وقال لهم بلاش تقتلوا الولا يقصد زبادي ابني؛ لأن قتله دلوقتي مش هيفيدنا حاجة إحنا كان هدفنا ذل خليفة وكسره، وعشان يعيش بقية عمره بحسرته على ابنه ويبقى عبرة لأي حد يتطاول على الكبير أو يفكر يعمل كده في يوم من الأيام، لكن بعد ما غار في ستين داهية من وشنا، مابقاش فيه أي داعي نقتل ابنه لأن لو قتلناه هنذل مين ونكسر مين؟ وبعدين كفاية على ابنه أم الشحات تلاقيه بيتقتل كل يوم ميت مرة.

ويواصل خليفة حديثه: عرفتوا ليه أنا كنت لازم أسيب البلد وكنت لازم مارجعهاش تاني عشان مايموتوش ابني قدامي وأنا عاجز مش قادر أعمل له حاجة ولا قادر أرد الظلم عنه، يمكن يكون اللي أنا عملته جبن جايز لكن له أسبابه، رغم إن أسبابه ومسبباته عمرها ما تكون أبدًا مبررات، لكن اللي أنا متأكد منه إنه عمره ما كان هروب أبدًا.

كل اللى كنت بافكر فيه ابنى وإزاي أخلصه من اللى ممكن يحصله من الطاغوت الظالم، فقلت خلاص مفيش قدامي غير إني أروح مصر وأقابل أبو المكارم هشتغل معاه في الفاعل شوية لحد زبادي مايحصلني، وقلت لنفسي أكيد هيقدر يغافل سجانيه ويهرب من سجن الطاغية الظالم، ونسيت إن الظالم كان عامل حساب كل

حاجة حتى حيطان سجنه كان مكهربها وكل البيبان كان ساددها على ابني حتى البوسطة والبريد كان راصدها اللي جاي منها واللي رايح والطريق كمان كان قاطعه، كانوا بيعدوا عليه حتى أنفاسه عشان كده ماقدرش ابنى يفلفص ويجيني.

أكيد هتقولولي عرفت ده منين؟ هقولكم أنا أب وقلب الأب بيحس بابنه أيوه عرفت كل ده بقلبى، طول عمري كنت كافي خيري شري وعمري ما أذيت حد، كنت باحب الناس كلها وعمري ما كرهت حتى اللي ظلمني وفرق بيني وبين ابني وكل أهلي وناسي.

المهم الشغل اللى اشتغلته مع أبو المكارم كان صعب عليا وأنا راجل كبير، كان عندى خمسة وستين سنة أيامها، وكانت الحكاية ماشية لحد ما في يوم حسيت بإني رجليا مش شايلاني وتعبان، وعنيا كمان كانت بتوجعني، فقلت لأبو المكارم أنا تعبان مش قادر، وسيبت الشغل وقلت أريح شوية لأني حسيت إني خلاص هموت من التعب. وفعلا ريحت شوية في ضل حيطة عمارة، أتارينى نمت من كتر التعب والإرهاق من الحر والشمس ومن الرمل والأسمنت اللي شيلته على كتفي.

المهم يا دوب عنيا راحت في النوم جه عسكري صحانى وقال لي ماتنامش هنا ممنوع، قمت مشيت وجنب جدار تاني مددت بعد الأولاني بمتين تلتميت متر، وكان معايا كيس بلاستيك فيه صميتاية وقزازة مية، لقيت الناس بتبصلي وتتصعب ولقيت

بعضهم زي ما يكون بيحطلي فلوس في الكيس، بعد ما نمت شوية، صحيت من عسكري تاني ولقيت فلوس في الكيس بعدهم طلعوا ميت جنيه، حمدت ربنا واشتريت أكل ومية ورجعت نمت مكاني ماصحيتش إلا تانى يوم.

قلت أروح بقى الشغل عند أبو المكارم مالقتوش ماهو هو كمان كان مسكين ومقاولاته على قده يعنى مرمات صغيرة على القد وكل يوم تلاقيه في حتة، رجعت ولفيت على شغل لما كعوب رجلي بقت تخر دم، دا غير التريقة اللى يقول لي بدل ما تدور على شغل روح دورلك على جبانة، واللي يقول لي ورينا موقفك من التجنيد عشان نشغلك، واللى يقول لي روح ريحلك في البيت سنتين تلاتة لحد متكبر وتقدر على الشغل، واللي يتريق على راجل قد أبوه ويقول ماقدرش أشغلك عشان القانون بيحرم تشغيل الأطفال.

وبرضو كان فيه ناس كويسة تقول لي والله يا حاج انت راجل كبير وماتقدرش على الشغل بتاعنا، واللى كان يعزم عليا بفلوس، المهم من كتر التعب من اللف اتكعبلت وقعت على الرصيف ماقدرتش أقوم تاني، أتاري رجلي اتكسرت، لكن لقيت بعض الناس بتعطف عليا وتحطلي فلوس تاني ومن غير ما أتكلم والله العظيم، المهم ناديت بعض الناس الطيبة جابولي تاكسي وودوني لدكتور جبس رجلي ورجعوني تاني مكان ما خدوني على الرصيف، وبقى الرصيف بيتي ومطرحي لحد ما جه الشتا والبرد، وبرضو ناس طيبة جابتلي العشة أتاوى فيها.

المهم يوم بعد يوم لقيت الفلوس بتزيد معايا ولقيت نفسي رحت في سكة عمري ما فكرت فيها وماكانش فيه سكة تانية قدامي أروحها، لما كنت بافكر في البلد كانت صورة ابني تقول لي بلاش عشان ماتموتنيش وعشان أشتغل كان مستحيل لا صحة ولا عافية ولا حتى أقدر أمشي غير يادوب أعدي الشارع بمساعدة أهل الخير، وطبعا ده مش مبرر لكن والله هي دي الحقيقة.

وخلاص بقيت كل يوم أطلع الصبح من العشة وأنادي أي حد يعديني الشارع عشان أوصل للرصيف اللي اتكعبلت عنده أول مرة واتكسرت رجلي وأرجع آخر النهار، وده اللى كان طول الخمس سنين وعيد ونجية كانوا شايفين وياما عدوني الشارع وياما رجعوني وماكنتش أعرفهم.

لكن اللي كان معيشني في الخمس سنين وخلاني مامتش الأمل اللي كان عندي وجوايا وكمان كان كلي ثقة في ربنا سبحانه وتعالى إني هاشوف ابنى، والحمد لله ربنا استجاب لدعايا وحققلي أملى وشوفته ومعاه كل الحبايب، مش مهم بقى أموت وللا أعيش ماعادتش تفرق معايا.

فيقاطع الجميع: ربنا يديك طولة العمر يا عمي خليفة. ويقول زبادي: يابا أنا عارف اللي حصل ده غصب عنك والحمد لله أن انت بخير. فيقاطع خليفة قائلاً: بص يا زبادي يابنى أنا الحمد لله اطمأنيت عليك واطمأنيت عليك أكتر بمراتك الملاك اللي معاك

الوردة الجميلة واطمأنيت إن الظالم الفاجر رحل واطمأنيت لما عرفت إن بلدنا رجعت تاني لأولادها، لكن يا حبيبى أنا بوصيك تدفني في البلد جنب أمك الله يرحمها، وبوصيك بعيد ونجية وسيد دول خواتك وأهلك إوعى تسيبهم، خدهم معاك في السكة والطريق اللي هتمشيه لأن دول ليهم فيه زيك بالظبط وطبعًا الوردة الجميلة المفتحة إوعاك تزعلها في يوم من الأيام وحطها فوق دماغك وجوه قلبك.

فيقاطع زبادي: انت بتقول إيه يابا وبتوصى بإيه ربنا يديك طولة العمر. وتقاطع وردة: دانت هتعيش معانا ياعمي وتنور بيتك ودايمًا وتشوف أحفادك وهما بيدلعوا عليك ويتنططوا قدامك. فيرد خليفة: هو أنا عايز إيه من الدنيا أكتر من اللى أنا شايفه قدامي وحواليا؟ هو أنا هطمع أكتر من كده إيه؟ دا حتى يبقى جشع وطمع في غير محله، دا كده الحمد لله قوي قوي وسيبونى بقى أروّح ماعادش وقت خلاص، انشراح بتناديني يا ولاد، أصلها وحشتنى قوي، وليكم عليا هسلملكم عليها وأطمنها عليكم كلكم، وكمان أطمن فتوح عن عيد ونجية وكمان هقول له خلاص الظالم وملكوته انتهى من الدنيا.

ثم يميل على زبادي هامسًا: ماتنعاش هم حاجة يابني أنا معايا مليون جنيه في الحزام اللى على وسطي، خدهم، والله دول حلال وشقوا بيهم طريقكم مع بعض كلكم انت وعيد ووردة ونجية وسيد، وده اللي أنا بوصيكم بيه خليكم يد واحدة وفريق واحد،

وإوعوا تتفرقوا أبدًا وإوعوا تردوا حد يسألكم حاجة في يوم من الأيام، وخلوا دايمًا قلوبكم مليانة بالحب وخلوا التراحم شيمتكم والرحمة صفة تميزكم والمحبة طبعكم وعنوانكم، وانسوا الكره والحقد؛ لأن الصفتين دول الكره والحقد لو اتوجدوا فيكم هيكون مكانهم على حساب الحب اللي في قلبكم وهياخدوا حيز جواه وساعتها الحب هيكون أقل وده اللي أنا مش عايزه يكون.

وعندها يميل عليه زبادي مداعبًا وهامسًا لإخراجه من حديثه هذا والذي يبدو أنه حديث مليء بالشجون قائلاً: أيوه يا أبو زبادي ضيعت العجل في البلد وماهمكش حاجة، أتاريك راسم على أرنب في مصر، أرنب بلد المعز زغلل عنيك يابو زبادي ومعاك حق، عجل إيه اللي كان نهار ما ربنا يكرمنا فيه كان هيجبله ألف جنيه وقتها وبكتيره كمان، ويمكن كان اللي يعرف أنه عجل ماعندوش أصل يمكن كان هيرجعه لينا تاني ويا عيني اتدبس فيه الورداني مسكين بعد ما سيبتهوله.

وعندها تقاطع وردة زبادي قائلة: إزاي تقول عجل مالوش أصول وهو عجلكم واتربى في زريبتكم؟ فيرد زبادي ساخرًا: هو فيه عجل أصيل أمه معزة؟!

لكن خليفة يبتسم ثم يكمل حديثه دون تعليق على كلام زبادي أو ما ردت به وردة: ربما كان الرجل يعرف ما يقصده ابنه وما تريده وردة من الكلام وهو إخراجه من حديثه هذا المليء بالشجون

والأسى، لكن من المؤكد أنه كان يدرك قيمة الوقت وأهميته خاصة في تلك اللحظات الدقيقة الحاسمة، ويبدو أن الحاضرين جميعهم لم يفهموا مقصده وما يرنو إليه خليفة، فهم وبكل قطعية لم يدركوا مغزى الكلام وفحواه لكنهم وبكل تأكيد سيعون كل ما حدث وبعد قليل، لذا واصل خليفة حديثه قائلاً: وكمان ماتنساش تسلملي على كل أهل البلد خصوصًا العمدة وعمك صالح وقل له أبويا مستنيك هتجيله قريب خالص. وفجأة يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ويخرج السر الإلهي ويسلم الروح في هدوء.

وعليه يخيم الحزن والوجوم على كل الموجودين وهم غير مصدقين ما حدث، وتعود الدراما الحزينة، سبحان الله، وكأن الرجل كان في انتظار أن يرى ابنه ويلتقي أحباءه قبل أن يرحل عن دنيانا.

❊ ❊ ❊

١١

مرة أخرى تختفي البسمة والفرحة وكأنه مكتوب على البسطاء أن لا تدوم أفراحهم وحتى في عز نشوتهم وابتهاجهم، فها هم إن علت قليلا ضحكاتهم خافوا وفزعوا وقالوا: اللهم اجعله خير.

ودائما ترى الخوف في عيونهم حتى وإن اختبأ وتوارى لكنه يبقى متحفزا متهيئا للقفز على أي فرحة ليفسد عليهم دومًا نشوتهم وابتهاجهم، لكن من المؤكد أن تلك السهرة الجميلة وحتى قبل نهايتها بقليل والتي جمعت الأب وأبناءه كانت حلاوة روح، نعم كانت حلاوة روح، ولكنك قارئي العزيز الآن وبعد ما رأيت من خليفة وحديثه قبل رحيله المفاجئ أدركت من هو الشخص الأكثر استشعارًا وإحساسًا، بل سوف تتأكد يقينا من صدق إحساس هذا الرجل وجدية استشعاره وأظن أنك لن تنتظر طويلا فذاك قد يحدث في نفس يوم رحيله.

وعاد خليفة إلى قريته مرة أخرى لكنه عاد ليوارى الثرى ويدفن في مقابرها، ويبدو أن خليفة رحمه الله أبى أن يعود إلى بلدته إلا بعد أن يتم الخلاص من الباغية الورداني حتى وإن عاد إليها جثة هامدة لا روح ولا حراك، كما رفضت روحه قبل هذ أن تفيض إلى بارئها قبل أن يلتقي ابنه ومحبيه وكما أسلفنا وقلنا إنها مقادير وأقدار لا دخل لبشر فيها تجرى بيد الله ولا غيره.

وحقا كان مشهدًا مهيبًا وكانت الآلاف في وداعه من بلدته ومن كل البلاد المجاورة بل من كل المحافظة، حيث إن قرية الكواملة أصبحت على كل لسان، بعد ما حدث بها من زلزال شعر به كل أبناء المحافظة وربما المحافظات الأخرى، وما أقصده بالزلزال هنا هو رحيل الطاغية الورداني ومعه كل زبانيته ومريديه ومرتزقته وداعميه، وذلك في يوم كان هو اليوم الأهم في حياة أهل تلك البلاد وقاطنيها، ومن الطبيعي أن يعلم الجميع من هو صالح وخليفة وابنه زبادي وكذلك فتوح وأولاده كما الحال مع منشاوي الشاب الغريب والذي أصبح اسمه على كل لسان أيضًا، كما هو الحال مع القرية التي كان في زيارتها صدفة وقدرًا، بل إن أخته وزوجها أصبحا أيضًا من المعروفين وقد كانا مجهولين حتى وقت قريب.

وما أقصده هنا أن عدد المشيعين والمعزين كان بالآلاف لأن خليفة أضحى من المشاهير على الأقل بمنطقته ومسقط رأسه وما جاورها، كما هو الحال مع صالح وفتوح، لذا كان طبيعيًا أن تكون أعداد المشيعين والمواسين بهذا الكم الرهيب من البشر، هذا بالإضافة لمن رافقوا جثمانه رحمة الله عليه من القاهرة من أصدقاء لابنه ولعيد وسيد وبالطبع وردة ونجية.

وبقدر حزن الناس على رحيل خليفة بعد تركه قريته مجبرًا ومكرهًا منذ خمس سنوات خلت حتى أنه لم يعد إليها إلا جثة هامدة، بقدر ما كانت فرحتهم برؤية عيد ونجية أولاد الأسطى فتوح رحمة الله عليه، حيث غادرا قريتهما صغيرين حتى أن غالبية الشباب الصغار

وربما الكبار أيضًا من أهل القرية قد نسوا ملامحهما وربما قصتهما لولا أن حكايتهما وماحدث لهما فيها مع غيرها من مآسٍ ومظالم كثيرة يتم سردها مرارًا وتكرارا كلما تذكروا الباغي وجرمه خاصة في الأيام الأخيرة بعد رحيل الورداني.

وبالطبع كانت الفرحة عارمة بزبادي وأسرته الجديدة، فزبادي له مكانة في قلوب الجميع والتى زادت كثيرًا في الأيام الأخيرة بوقوفه في وجه الورداني في ليلة الخلاص منه، وبرغم كل ذلك إلا أن هذا لا يمنع الهمس واللمز من البعض، إذ كيف لزبادي بالزواج في تلك الفترة القصيرة؟ ومن أين أتى بتكاليف الزواج وقد سافر القاهرة وكل ما معه لا يزيد عن ثلاثمئة جنيه هي ثمن بيع حماره وكل مدخراته البسيطة؟

ليسرح كل من هؤلاء بخياله بعيدًا، فمنهم من قال إن زوجته من عائلة ثرية إذ يبدو عليها ذلك، ومنهم من قال إن خليفة رحمة الله عليه قد ادخر مبلغًا كبيرًا من عمله بالقاهرة خلال خمس سنوات ربما أكثر من ألفي جنيه أو يزيد، وللعلم كل هذا ليس بغريب، خاصة في ريفنا المصري حيث الكل يعرف الآخر، فالأعداد قليلة والقرى ومهما كانت مساحتها وعدد سكانها صغيرة مقارنة بالمدينة، لكن تلك الظاهرة ربما تقل كثيرًا في المدن وتنعدم تمامًا في المدينة الكبرى القاهرة، حيث الجميع مشغول بحياته اليومية وكسب قوته ومشكلاته الحياتية، فلربما في ذات العمارة الواحدة لا يدري أحدهم بالآخر وإن كانت تلك من المآخذ التي تؤخذ على قاطني

المدن الكبرى فالتواصل الاجتماعي والتواد مطلوب حتى وإن كان في أدنى درجاته، وإن كان من مميزاته أنه لا يدع مجالا للنميمة والقيل والقال.

وبعد دفن الجثمان ومواراته الثرى تأبط الشيخ صالح زبادي مواسيًا له في فقدانه لوالده ومهنئا له في ذات الوقت حيث إنه والحمد الله قد التقاه حتى وإن كان اللقاء قصيرًا.

ثم أردف الشيخ يقول: ألم أبشرك بذلك يابني وفي أحلك الظروف في يوم الخلاص؟ وكنا لا نعلم حينها متى هذا اليوم، لكن وبإرادة الله ومشيئته كان الخلاص من الطاغية في نهاية اليوم وكان لقاؤك بوالدك بعد شهر، إنها إرادته سبحانه فهو من بيده الأمور والمقادير والأقدار.

ثم واصل الشيخ حديثه قائلاً وهو مبتسم: الواحد لسه هيروح البيت ويرجع تاني هنا؟ ليرد زبادي: ترجع فين يا عمي صالح؟ هو انت ترجع الترب تاني ليه؟ فيرد الشيخ قائلاً: متاخدش في بالك يا بني، بس أنا عايز أسألك سؤال أخير، ألم يخبر والدك بشيء بخصوصي؟ فأجاب زبادي: كما قلت لك يا عمي صالح لقد أوصاني رحمة الله عليه أن أبلغك السلام والعمدة وكل أهل البلد.

لكن صالح عاد ليقول لزبادي شيئا غريبًا ولم يسأله فقد سأل سؤاله الأخير، ترى ماذا قال؟ لقد قال الرجل وأعني هنا الشيخ صالح: انت بتخبي عليا يا زبادي! مش عايز تزعل عمك صالح! فاكرني باخاف من الموت يا عبيط؟ دانا مستنيه على أحر من

الجمر يا ولا، وأهلا بيه والحمد لله الواحد دلوقتي بقى مستريح خلصنا من الباغي الظالم، والدور عليكم بقى انتم الشباب تكملوا المسيرة وتبنوا بلدكم وبإيديكم وزي مانتم عايزين، بس لازم تحبوها عشان تبنوها صح، ثم توقف الرجل ونطق بالشهادتين وقبل أن يرد زبادي شارحًا، سقط صالح على الأرض وفاضت روحه إلى بارئها وسط ذهول كل المعزين والمشيعين والذين أصبح لزامًا عليهم أن يعودوا مرة أخرى إلى المدافن.

وعندها يصرخ زبادي محتضنا الشيخ صالح مذهولا مما حدث قائلاً: قال لي والله يا عم صالح. ويكرر: قال لي والله يا عمى صالح، بس أنا مارضتش أقول، خبيت عليك يا عمي صالح. وتجمع الناس حول زبادي سائلين ومتسائلين ماذا تقصد بما تقوله يا زبادي؟ فأجابهم زبادي أن والده وقبل أن تفيض روحه إلى بارئها قال له سلم لي على عمك صالح وقل له أنه هيجيني قريب قوي.

فلما جيت البلد هنا عشان أدفن أبويا حسب وصيته كان طبيعي إني أقول لعمي صالح أبويا قبل ما يموت قال لي سلم لي على عمك صالح، ولما سألني عمى صالح وقال لي أبوك ماقالكش حاجة بخصوصي غير السلام ماقدرتش أقول له اللي أبويا قاله خوفا عليه وعلى شعوره.

فلما مات قدامى من المفاجأة قلت له قال لي والله ياعمى صالح، أنا كنت متأكد إنه هيحصل بإذن الله زي أبويا ما قال بس ماكنتش مفكر إنه هيحصل بالسرعة دي وعلى طول كده.

وعندما أنهى زبادي حديثه قال الحضور: سبحان الله.. رحمة الله على الرجلين لقد كانا أطيب ما فينا وأكثرنا إيمانا وورعًا وتقوى، وتم دفن الشيخ صالح ومواراته الثرى أيضًا أو عاد إليها مرة أخرى وأقصد هنا المدافن وكما قال منذ قليل لزبادي.

وكان سرادق العزاء للراحلين خليفة وصالح مكتظا بالمعزين والمواسين من كل صوب وحدب، نعم الرجلين كانا والذين ودعتهما القرية في يوم واحد خليفة أوله وصالح آخره ودعا لهم المعزون وكل من حضر بالرحمة والمغفرة وأن يسكنهما الله فسيح جناته.

وهنا دعني أقول كم هم طيبون هؤلاء البسطاء حتى في مشاعرهم وإحساسهم ولا أقول نبوءاتهم حتى لا أنعتهم بما ليس فيهم، فالغيب دومًا ودائما بيد الله ولا يعلمه سواه، ولكن ربما هي إرهاصات حتى وإن صادف وصدقت كما حدث مع خليفة وصالح، لكني في ذات الوقت لا أنكر أبدًا الطيبة والبساطة والنقاء في قلوبهم.

وكانت المفاجاة أن يأتي الجد صميدة أكبر معمر بالقرية بل في الناحية كلها حيث يبلغ الرجل تسعة وتسعين عامًا من العمر، جاء صميدة ليسأل زبادي هل أوصاك أبوك رحمة الله عليه بأي حاجة بخصوصي؟ ليرد زبادي قائلاً: والله يا جد صميدة أبويا ماجابش سيرتك خالص الظاهر إنه نسيك يا جد، معلش أنا آسف متزعلش من أبويا.

فيرد الجد: أزعل إيه يا بني دانا فرحان، دا اللي افتكره أبوك جاب أجله وخده معاه على طول، الحمد لله إنه مافتكرنيش خلينا نتمتع لنا شوية في الدنيا الجميلة دي. وعندها يقترب منه زبادي سائلا: وانت عايز إيه من الدنيا يا جد بعد ميت سنة؟ دانت مافيش حد من جيلك ولا الجيل اللي بعده.

فيرد الجد صميدة قائلاً: ماهو ده اللي مريحني، الواحد بيتكلم براحته لا حد كان حاضر يكدبه ولا حد يقول له ماحصلش، يعني أنا لما جاني صاحبي سعد زغلول وصفية مراته وعيالها البلد هنا وأكلتهم فطير وعسل نحل تاكل صوابعك وراه، وللا لما هربت قبلها من مذبحة دنشواي بعد ما طخيت اتنين إنجليز بإيديا دول، مين بقى دلوقتي يقدر يقولي انت فرام ومين يجرؤ يكدبني ويقلي الكلام ده ماحصلش؟ ولا حد يقدر، لأن مافيش حد فاضل منهم والحمد لله. فيرد زبادي قائلاً: بس ربنا شايف يا جد صميدة.

فيرد صميدة ساخرًا: مانا عارف يابني إن ربنا شايف وأنا مابكدبش عمري، جايز كلامي يكون فيه حبتين فشر ولا فرم زي انت ما بتقول، لكن مين قالك إن الناس دايما بتكدّب اللي بيكدب عليها؟ الناس يا بني بتصقف وتحيي وتمدح الكداب والفشار اللي ليهم مصلحة معاه وتكدب الصادق والأمين إذا كان مافيش مصلحة من وراه. ويواصل: أصلك يابني لسه صغير ماتعرفش الناس زي ما أنا عارفهم. فيرد زبادي قائلاً: دانت عقر يا جد روح يا شيخ ربنا يديك طولة العمر.

فيرد الجد: الله يخليك أهي دي الدعوة الحلوة صحيح يا ولا.
ثم ما يلبث زبادي أن يناديه قائلاً: يا جد صميدة فيه حاجة مهمة نسيت أقول لك عليها. فيرد صميدة: إيه هي يابني قل لي؟ فيرد زبادي: انت عارف أبويا ماجابش سيرتك في حاجة. وقبل أن يكمل زبادي قاطعه صميدة: هو انت يابني هتشتغلني مانا عارف أنه ماقالش، خلاص بقى هي سيرة؟ فيرد زبادي قائلاً: مش تديني فرصة أخلص كلامي؟ فيرد صميدة: خلصنا يا سيدي. فيقول زبادي: أبويا آه ماجابش سيرتك، لكن عمي صالح بيسلم عليك وبيقولك هو مستنيك تجيله الليلة. فيرد صميدة وبثبات وسخرية أيضًا قائلاً: بص يازبادي يا حبيبي ياريت تروحله انت وتقول له عمك صميدة مش فاضي الليلة. ويكمل صميدة ضاحكا: بقى على جدو يا ولا؟ ماينفعش داحنا دافنينه سوا.

❊ ❊ ❊

١٢

بعد حديث الجد صميدة وزبادي نعود لنجية وأخيها عيد، فكم تمنيا أن يريا منزلهما القديم بالقرية وها هي تجلس بين صحيباتها والتي لم تنسهن ومنذ أيام الطفولة الأولى، واللاتي مالبثن أن تذكرنها أيضًا سريعًا حتى وإن تغيرت ملامحها وملامحهن عن ما كن عليه في أيام الطفولة، وحتى وإن كان الكثيرات منهن قد تزوجن لكنهن جميعًا كن قد جئن من أجل العزاء ومن أجل التقائها بعد السنوات الطويلة.

وكذلك حدث نفس الأمر مع عيد وإن كان من السهل التعرف عليه من قبل خلانه وأصحابه وزملاء دربه القدامى، إذ يبدو أن عيد لم تتغير ملامحه كثيرًا عن ذي قبل، ربما لأنه قد رحل صبيًا يافعًا عكس نجية فقد كانت طفلة صغيرة لا تتعدى السنوات الخمس من عمرها.

وفى منزل زبادي والذي لم يخل من المعزين والمواسين حيث كانت وردة ونجية في استقبال النساء المعزيات ومعهن البعض من نساء القرية كزوجة العمدة وابنتها وزوجة سعيد أبو عجيلة وغيرهن حيث إنه ومن الطبيعي أن يقفن بجانب وردة ونجية في تلك الظروف ومن أجل التعارف والتعريف بالأخريات واللاتي قد جئن للعزاء.

لأنه ومن المؤكد أن وردة ونجية تجهلان الأسماء والوجوه، وبعد تأدية واجب العزاء والتعارف أيضًا، كانت النساء كلهن معجبات بوردة زوجة زبادي تلك السيدة الحسناء الطيبة كما يبدو، وأيضا بنجية ابنتهم وابنة فتوح رحمة الله عليه والتي تركت البلدة وأخيها وهي مازالت طفلة صغيرة.

ولقد كان في استقبال الرجال زبادي وسيد وعيد والعمدة وعدد غير قليل من أهل القرية منهم العمدة الجديد المزمع تنصيبه بعد إجراء الانتخابات وهو عمدة شاب متعلم مثقف، هذا ولم يكن العزاء عزاء بالمعني المعروف بل جلسة تعارف وذكريات ولقاء بين أحبة وأشقاء.

وبعد انتهاء مراسم العزاء وقبيل العودة إلى القاهرة مرة أخرى كان لابد من زيارة أطلال الورداني والتي أضحت مزارًا غير رسمي يأتي إليه أناس كثيرون يوميًا خاصة من أبناء المحافظة وفى بعض الأحيان من خارجها ليروا نهاية الظلم والطاغوت، وكان أكثر الناس سعادة نجية وعيد ووردة حيث إنها المرة الأولى التي يرون فيها بأم أعينهم ما آلت إليه مملكة الورداني وحجم الدمار والتدمير الواضح لكل ذي عين، فالنار لم تترك فردًا من حاشيته وزبانيته وكأنهم حشروا معه داخل القصر وخلف أسواره ليكونوا وقودًا للنار، لقد تفحمت الجثث بعد أن احترقت حتى عظامها، لقد استمرت النيران متوهجة لأكثر من ثماني ساعات وبعد أن خفت لهيبها وظن أهل البلدة أنها قد أوشكت على الانطفاء عادت مرة أخرى بعد

انفجارين متتاليين لتستمر أربع ساعات أخرى متوهجة، أي أن النيران استمرت أكثر من اثنتي عشرة ساعة ولم تستطع قوات الإطفاء الاقتراب من الموقع إلا بعد التأكد تمامًا من عدم وجود أية أنابيب للغاز مازالت لم تنفجر بعد.

وكم عانت قوات الدفاع المدني في استخراج ما بقى من المحرقة، والذي لم يكن سوى مئات من أشباه الجماجم بعد احتراقها وبعض قطع من العظام المتفحمة، وهذا يعطيك مؤشرًا عن كثرة أعداد الذين أكلتهم النيران.

وقد تم دفن كل تلك الأشلاء بإذن النيابة، وربما يكون من بين تلك الجماجم رأس الطاغية وربما لم يبقَ منه سوى بعض التراب الأسود الموجود بالمكان والذي تدوسه أقدام الزائرين والمترددين على المكان ليل نهار، وبالطبع لايعيب مرتادي المكان أنهم يدوسوه بأحذيتهم فهم ربما لم يخطر ببالهم ذلك، لكن الطاغية كم داس على كرامة كل من حوله خاصة بسطاء أهل قريته عامدًا متعمدًا، فلا عجب أن يدوسه كل الناس حتى وإن عابهم أنهم لم يقصدوا أو يتعمدوا ذلك، وسبحان الله لقد ثبت للجميع أن الورداني هذا الطاغية والطاغوت لم يكن سوى صفرٍ كبير تحيطه أسواره وسياجه والتي ظن أنها ستحميه وتمنعه، فأضحت تلك الأسوار في لحظات أصفارًا هي الأخرى، ومنذ متى تحمي الأصفار أصفارًا يمينا كانت أو يسارًا؟

وبعد انقضاء أسبوع بكل ما فيه من الحزن والأسى لرحيل خليفة وصالح وما احتواه من لقاءات وذكريات كانت عودة أسرة زبادي إلى القاهرة مرة أخرى، وليس المقصود بأسرة زبادي هنا هو زبادي وزوجته وردة بالإضافة لسيد شقيقها فقط، ولكن أيضًا عيد ونجية، كما أوصى خليفة رحمة الله عليه، وحتى إن لم يوصِ فهم جميعهم إخوة وإن فرقتهم السبل، فلقد عاشوا الشقاء وذاقوا الحرمان سويًا وإن اختلفت الأماكن وتباعدت العناوين، لكن في النهاية جمعتهم أقدارهم ولعبت الصدفة دورها معهم في لم شملهم من جديد.

ولكن يبدو أنه من رحم الأحزان قد تولد الأفراح، وهذا ربما ما حدث بين سيد ونجية، إذ يبدو أن هناك نوعًا من الاستلطاف المتبادل قد نشأ بينهما وخلال ذلك الأسبوع، مما دفع سيد أن يقول إنه أجمل أسبوع عاشه في كل عمره وحياته.

ليعاتبه زبادي قائلاً: هو البعيد مابيحسش؟ ليرد عليه سيد متأسفًا ويقول: جايز يكون خاني التعبير لكن كنت منتظرك تعديها على اعتبار إنها زلة لسان وزي كل مرة وتقول لي مثلا أجمل أسبوع شوفته إيه!! ماتبطل فشر بقى يا سيد هو انت بتشوف من أساسه.

فيقاطع زبادي قائلاً: يا واد يا طحش انت فاكرني بالومك دانا بناغشك بس. ويواصل: دانا بقالي أسبوع ماسمعتش منك فشرك ولا فرمك فحبيت أشتغلك شوية عشان بصراحة فرمك وحشني ماهو انت لو خدت بالك أنا كنت مبتسم وكاتم الضحكة بالغصب

وأنا باعاتبك زي ما بتقول، أهو كده أنا اتأكدت إن انت مابتشوفش بصحيح وكل اللي بتقوله فشر.

فتقاطع وردة وتقول لنجية: عارفة يانجية هم كده على طول ومن أول يوم اتقابلوا فيه مع بعض.

فترد نجية: والله سيد دمه خفيف خالص. فيرد زبادي: اشمعنا سيد لوحده اللى دمه خفيف؟ فترد نجية ولكن بكسوف وخجل قائلة: أنا عارفة من الأول إن انت دمك خفيف مش كنا بنلعب مع بعض واحنا صغيرين لكن سيد لسه عارفاه من أسبوع يادوب.

فيرد زبادي قائلاً: أنا كده عرفت ليه سيد قال دا أجمل أسبوع شفته. فترد نجية: وبعدين معاك يا زبادي؟ انت مابتفوتش حاجة أبدًا؟ وعندها تتدخل وردة وتوجه كلامها لنجية قائلة: والله أنا باحب نجية ويمكن لو كان ليا أخت مكنتش هحبها كده ونفسى هي و.... ولا تكمل الكلام.

فيقاطع زبادي ويكمل حديث وردة قائلاً: نفسك هي وسيد نلموهم في بيت واحد. ويواصل زبادي: ده طبعا بعد إذن عيد. فيرد عيد: والله سيد ابن حلال وزينا زيه ويشرفنى بس الظروف مش وقتها. ويرد زبادي: أكيد عيد قصده أن إحنا لسه دافنين أبويا وجايين، لا ياعم عيد مالكش دعوة بالظروف، صحيح هي مش ظروفي لوحدى عشان أقول دي ظروفي وملكوش دعوة، يا جماعة دى ظروفنا كلنا، خليفة ماكانش أبويا لوحدى زى مانتوا عارفين، وبعدين هو هيبقى أسعد الناس في قبره لما يعرف إن نجية وسيد هيرتبطوا.

وعندها يقول سيد: ياللا يا عيد وافق ولا مانتش عايز تسعد عمي خليفة في قبره؟ فيرد عيد: خلاص يا جماعة، بس لما نجية تمشى هقعد وحيد. فتقاطع وردة قائلة: والله يا عيد أنا عندي لك واحدة صحبتى بنت حلال وطيبة وجميلة كمان وزينا كده. فيقاطع زبادي قائلاً: أكيد قصدك مريم. فترد وردة: أيوا مريم. فيرد زبادي قائلاً: والله ونعم.. أهو على الأقل نفكها من سرعتلي. وعندها يقول عيد: وأنا تحت أمركم. فيرد الجميع: على بركة الله.

وفي اليوم التالي لرجوعهم إلى القاهرة كانت جلسة الاجتماع والتشاور الأولى لجميع أفراد أسرة زبادي، وتم اختيار منزل زبادي حتى يكونوا بعيدًا عن المكان الذي توفي فيه خليفة رحمة الله عليه وحرصًا على السرية ومنعًا للقيل والقال، وقد كان لهذا الاجتماع أهميته لكل الأسرة فهناك الكثير ينتظرها ومن أجل ترتيب أوراقها ووضع الخطط المستقبلية لما هو قادم، بالإضافة للاستشارات والدراسات فالأموال الموجودة لديهم ليست ملكهم وحدهم بل هي نتاج شركة مساهمة ساهم فيها ربما الملايين من أهل مصر، وهم لا يزيدون عن كونهم القائمين عليها، لذا وجب الحرص والمحافظة على تلك الأموال، كما أن جزءًا كبير من صافي ربحها ومكتسابتها لابد أن يعود لأصحابه أو المساهمين.

وأظنك قارئي العزيز وبحسن فطنتك وكياستك قد أدركت مقصدي وما أرنو إليه، والأموال ولله الحمد تكفي وتفي لعمل مشروع من المشاريع حتى وإن كان من المشاريع متوسطة التكلفة، كما أن

الجميع قد تعاهدوا على بذل الجهد والإخلاص في كل أعمالهم وأن يعملوا بروح الفريق الواحد، وكان كل أفراد الأسرة حريصين على أهمية المشورة وضرورة التنسيق والتشاور مع الآخرين والاستفادة منهم ومن خبراتهم وتجاربهم.

وقد أشار عيد بضرورة العمل في مجال يتقنونه ويعلمون كل تفصيلاته وأولوياته لا أن يسيروا في طريق مجهولة أو مناطق لم تطأها أقدامهم، فالخبرات جد مهمة ولها أهميتها التي لا ينكرها إلا جاهل أو جاحد.

فقال زبادي: أنا خريج صناعة قسم نجارة ودخلت القسم ده برغبتى وكان أملى أو قول حلمى أن يكون لدي ورشة في يوم من الأيام. وعندها قال عيد موجها كلامه لزبادي: إنه منذ التقينا ومنذ أكثر من عشرة أيام تباحثنا في كل الأمور الحياتية وتكلمنا كثيرًا عن الماضي وها نحن الآن نتحدث عن المستقبل القادم بإذن الله لكن أحد منا لم يسأل ماذا يعمل الآخر.

وأقسم بالله إن تلك هي المرة الأولى التي أعرف فيها أن زبادي خريج صناعة قسم نجارة، كما أنى أجزم أنه لا يعلم أني حاصل على نفس المؤهل ومن ذات القسم قسم النجارة لكن من القاهرة، وإن كنت أسبقه ببضع سنوات، كما أننى أعمل في مجالي هذا ومنذ تخرجي في ورشة نجارة بمنطقة حلوان ربما تكون هي الأكبر على مستوى كل المنطقة.

لكن للأسف ومنذ ما يقرب من الشهر قد توقف العمل بالورشة حيث عرضها صاحبها للبيع وكذلك منزله والذي توجد به الورشة، حيث إنه بصدد بيع كل ممتلكاته استعدادًا للسفر وإن شئت قل الهجرة، فهو يريد أن يلحق بأولاده الثلاثة وابنتيه وقد سبقته زوجته منذ شهرين على أن يلحق بها بعد التصرف في الورشة والمنزل وباقي ممتلكاته.

ويشارك سيد في الحديث قائلاً: والله دا مشروع تمام والحمد لله أن كلنا بنفهم في الموضوع ده. فيرد زبادي: كلنا مين؟ طب أنا وعيد دي دراستنا ومهنتنا سيادتك بقى تفهم إيه في النجارة؟

فيرد سيد: بتسألني أفهم إيه في النجارة!! صحيح ماهو اللى مايعرفش يقول عدس، دانا يا زبادي كنت نجار باب وشباك ماحصلش، ألمس الخشب بإيدى أعرف نوعه في ثانية، مع إن كتير من المفتحين مايعرفش ده من ده، وكنت بالفارة أهندس أي باب، دا غير السنفرة والظبط والتركيب، فيقاطع زبادي: ولما انت كنت كده ليه سبت شغلك؟ فيرد سيد: سبت شغلى عشان الحكومة فرضت على أصحاب الورش مايشغلوش المكفوفين حماية ليهم، خصوصا بعد المناشير الكهربية والحاجات الجديدة الحديثة، وعندها يسأل زبادي وعيد: انت بتتكلم جد يا سيد؟ وقبل أن يرد سيد ترد وردة: آه والله كل اللى قال عليه سيد دا حصل، دا حتى الأبواب والشبابيك لما غيرناهم هو بنفسه اللى ركبهم وظبطهم زي مانتوا شايفنهم كده من غير مساعدة أي حد.

لكن وردة تقول: على فكرة أنا طبعًا ماليش في النجارة لكن باحب قوى شغل التريكو، ونجية ترد: وأنا أعشق التطريز، ويقاطع سيد: وانا كمان أحب التطريز جدا. فيقاطعه زبادي كالعادة قائلاً: طب النجارة وعديناهالك، نعدى إزاي التطريز؟ ولا يمكن عشان نجية غاوية تطريز يبقى انت كمان غاوي تطريز. فيرد سيد قائلاً: وإيه العيب في كده؟ قالوا لجحا بلدك فين؟ قال اللي فيها مراتي. فيقاطع زبادي: جحا قال مراتي مش خطيبتى. فيرد سيد قائلاً: مجازًا ياسيدي على اللي هيكون إن شاء الله في المستقبل، وبعدين يا زبادي انت واقفلى كده على الواحدة ماتخف شوية، ماتقولى حاجة يا وردة. فترد وردة: أعمل إيه مانتم كده على طول زي ناقر ونقير.

وبالفعل تم شراء ورشة العم توفيق والمنزل أيضًا بعد التشاور والمعاينة للمكان من كل أفراد الأسرة، وللحق كان عمى توفيق سمحًا جدًا في بيعه ورغم أنه كان هناك كثيرون يأملون في شراء الورشة والمنزل معًا لكنه فضل البيع لعيد دون غيره وبسعر أقل مما عرضه عليه الآخرون، وذلك حبا في عيد ولمكانته لدى العم توفيق وربما مراعاة للعشرة الطيبة، فقد كان الرجل يحب عيد جدًا ويثق فيه إلى أقصى درجة نظرًا لأمانته وإخلاصه وجديته في عمله وحسن أخلاقه وجميل تصرفاته وأفعاله خلال المدة التي عمل معه فيها.

❊ ❊ ❊

١٣

تم افتتاح مشغل لوردة ونجية، وبالطبع مريم خطيبة عيد، وفى ذات المنزل المشترى وبجوار الورشة مباشرة، وقد تم تطوير الورشة بأحدث الآليات والإمكانات والمعدات الحديثة لتصبح وفي خلال سنوات قليلة أكبر مصنع للخشب بالمنطقة بعد ما تم شراء الأرض الفضاء المجاورة للورشة القديمة واستغلالها في بناء المصنع الجديد.

ورويدًا رويدًا ومع مرور الوقت أصبح هناك أكثر من خط إنتاج لمصانعهم في كل الأحياء الصناعية بمنطقة القاهرة الكبرى وضواحيها، وأصبحت مصانع خليفة للمنتجات الخشبية معروفة للقاصي والداني وعلى كل لسان هنا وهناك لجودة إنتاجها والدقة والذوق العالي في كل تصميماتها.

كما أصبحت محلات وردة ونجية ومريم والمعروفة باسمها التجاري (التلت بنات) حتى وإن الثلاث بنات لم يعدن بنات أو شابات صغيرات بعد زواجهن بسنوات وسنوات، بل إنهن الآن أصبحن من ضمن سيدات المجتمع الراقي كما هو شأن محلاتهن، والتي أضحت من أرقى بيوت الأزياء المعروفة والمشهورة يرتادها الكثيرات من أجل الموضة وأحدث الموديلات، وأصبحت لها فروعها في كل المناطق والأحياء خاصة الراقية منها.

ورغم ما أصبحت فيه أسرة زبادي ورغم أنها أصبحت ثلاث أسرات إلا أنهم لم ينسوا بلدهم وقريتهم أبدًا وكل قاطنيها حيث توجد نسبة كبيرة من العاملين في مصانعهم من أهالي القرية والقرى المجاورة كل في تخصصه ووفقا لقدراته ومقدرته بعد أن يتم عمل دورات تدريبية للجميع وصقلهم بالحرفية والعلم ووفق أحدث الأساليب والمستجدات.

ورغم أن القرية لا تبعد كثيرًا عن القاهرة الكبرى إلا أنه وللتسهيل على أهلها وأهل القرى المجاورة تم مؤخرًا إنشاء خط إنتاج جديد لمصانع خليفة بالقرية يخدم ربما كل أبناء المحافظة، كما أنه وبالتزامن مع بدء تشغيل الخط الجديد لمصانع خليفة.

تم افتتاح مدرسة صالح الثانوية الصناعية لخدمة كل أهل المنطقة بالإضافة لتخريجها للكوادر الفنية الشابة والتى يتم صقلها فيما بعد ذلك بالدورات التدريبية داخليًا وخارجيًا ليكون هناك عمالة فنية مدربة تخدم مصانع خليفة وغيرها من المصانع الأخرى كل حسب تخصصه وقدراته.

هذا بجانب مدرسة فتوح الثانوية ومركز شباب منشاوي المطور، وبالمناسبة هذا المركز والذي كانت تكلفة بنائه وتجهيزه من خلال أسرة زبادي وإن شئت قل من خلال أسهم المشاركين الأوائل وأظن أنك تدرك ما أعنيه، بالإضافة إلى المدرستين والمستشفى الريفى ودار الأيتام النموذجية وغيرها من المشاريع الخدمية كالمشغل والمكتبة.

نعم لقد تم إطلاق اسم منشاوي على مركز الشباب المطور تكريمًا له وعرفانا بفضله والذي أعتقد أن الكل مازال يذكره، إنه الشاب الغريب الذي تم سحله بسبب أنبوب الغاز والذي كان هو الشرارة التي أشعلت حماس أهل القرية من أجل مواجهة الباغي والطاغي الورداني.

ورغم أن حمامات صالح رحمة الله عليه تكفلت بالقضاء على الطاغية ومنعت المواجهة لكنه وللتاريخ كان سيظل ذلك عارًا كبيرًا يلاحق كل أهل القرية وما جاورها إن لم تكن تلك الجموع قد تحركت بالفعل وقبل أن يتحرك ويطير حمام الشيخ صالح ليمنع مواجهة محتومة ويقضي على أسطورة الباغي الظالم وجبروته.

بل ربما لم يكن الحمام ليفعل ما فعل إلا بعد أن رأى تحركات البشر والتى كان من أسبابها هذا الشاب، لذا كان أقل شيء يقدم له أن يطلق اسمه على مركز شباب القرية، إنه الشاب الغريب منشاوي، والذي لم يعد غريبًا فهو الآن كبير المهندسين بمصانع خليفة، وبالطبع لم يعد شابًا فهو الآن على مشارف الخمسينات من عمره، كما أن أخته والتى كانت حينها عروسًا في أول أسبوع من شهر العسل أصبحت أما لعروس تم زفافها في نهاية الشهر الماضي، رغم أن تلك السيدة الفاضلة لم ينعم الله عليها بالذرية إلا بعد مرور سبع سنوات من الزواج.

والحمد الله أنه لم تكن أخت منشاوي العروس الجديدة حينها تعلم شيئا عن الورداني وجبروته ولامخازنه وأنابيبه،

وإلا لمنعت أخاها من الذهاب وما أرسلته، وعندها ما كان ليحدث كل ما حدث وحتما كانت ستبقى القرية تغط في سباتها لا حركات ولا تحركات، وبالتبعية كان سيظل حمام صالح نائما هو الآخر في بنياته، لكن المؤكد أن الورداني كان سيظل جاثما على صدور أهل القرية حتى يومنا هذا.

لكن ألم تلاحظ قارئي العزيز أن بعض من طالهم الطاغية الورداني بظلمه ترفرف أسماؤهم في السماء عالية خفاقة كما ترى على المدرسة ودار الأيتام والمستشفى ومركز الشباب كخليفة وصالح وفتوح ومنشاوي، وعلى النقيض تمامًا ترى الظالم الباغي لا مكان له في الأرض وهو بالطبع لم يصعد به إلى السماء.

فلم تدفن جثامينه وكل زبانيته ومنافقيه وكأن الأرض قد رفضتهم ولفظتهم جميعًا بعد أن ضاقت به ذرعا بسبب جرم الباغي الورداني وإجرام كل زبانيته ومن يحيط به، وسبحان مغير الأحوال وكما يقولون تبقى دومًا الأيام دولاً ودولة الظلم ومهما كان جبروتها وقوتها فهي ساعة، ودولة الحق وإن تأخر مجيئها طويلا لكنها تبقى حتى قيام الساعة.

وتبقى أسرة زبادي حريصة دائما على ارتباطها الوثيق بالقرية، فالقرية دومًا في قلوبهم جميعا، فهي مسقط رأس زبادي وعيد ونجية وسيد ووردة بالتبعية، لذا لم تنقطع زيارتهم لها في يوم من الأيام لا من أجل الاطمئنان على مشاريعهم وأعمالهم،

ولكن لأنهم حقا يحبونها وتسكن قلوبهم جميعًا فتارة تجد زبادي ووردة وأولادهما يقضون نهاية الأسبوع فيها وتارة، أخرى تجد عيد ومريم وأبناءهم يقضون فقط نهاية الأسبوع بالقاهرة وبقية أيام الأسبوع بالقرية وكذلك نجية وسيد، وقد تعود زيارات عيد المتكررة لقريته وتفضيله للإقامة فيها في بعض الأحيان عن القاهرة لا بسبب زحمة القاهرة وضجيجها وإنما كل ذلك مرجعه إلى سنوات الحرمان الطويلة والتي قضاها بعيدا وعاشها مطرودا هو وأخته ووالده رحمة الله عليه بسبب ظلم وجبروت الباغي الظالم الورداني.

وبالطبع أصبح لكل من زبادي وعيد ونجية منازلهم الجديدة بقريتهم والتي تم بناؤها على أنقاض دورهم القديمة وفي نفس مكانها، لكنها أصبحت الآن بيوتا حديثة تليق بوضعهم ومكانتهم الجديدة وإن لم تزد عن الكثير من بيوتات وبيوت أهل القرية.

ولقد أصبح التواصل واجبًا مع أهل القرية بل كل قرى المحافظة في كل المجالات ومختلف التوجهات، وقد كان هناك حرص من الجميع من أجل خدمة أهل تلك القرى وتعويضهم عن كل ما عانوه في عهد الظالم البائد الورداني وعن كل ما فاتهم في ظل وجوده. وبالطبع زادت أواصر الصلة ونما التواصل وتوثقت الصلات كثيرًا بعدما أصبح زبادي هو نائب المحافظة في البرلمان والذي بدوره قد نجح وبالتزكية في دائرته مما ينم عن مكانته الكبيرة في قلوب كل أهل المحافظة.

لا بسبب مشروعاته الخدمية هنا وهناك أو مساهماته اللا محدودة من أجل خدمة الفقراء والمحتاجين، ولكن لأنه منهم قد عاش آلامهم وأوجاعهم وكان أيضًا ممن واجه الطاغية والجبروت، ولك أن تعلم أن من واجه هذا الباغي الظالم طوال وجوده لم يزد عددهم وبأي حال من الأحوال عن عدد أصابع اليد الواحدة كان من ضمنهم زبادي وبالطبع كان أولهم صالح، بالإضافة لمنشاوي والذي قادته الصدفة والأقدار لمواجهة لم تكن أبدًا في حسبانه، وكم كانت تلك المواجهة فارقة خاصة أنها كانت في اليوم الأخير في حياة الورداني، فقد شجعت الكثير من الشباب وزرعت الأمل في نفوسهم من جديد، ولك أن تعلم أيضًا أن زبادي كان من أوائل المكتوين بنار هذا الطاغية، وكذا والده خليفة رحمة الله عليه.

لذا كان لزامًا على زبادي أن يعمل جاهدًا على خدمة أهل دائرته لا لأنهم قد منحوه ثقتهم وأعطوه أصواتهم، لكن لكونهم أهله ومجتمعه الصغير والذي عاش فيه أكثر من نصف عمره تقريبا وأيضًا لمكانتهم في قلبه وحبه اللا محدود لهم، ولا غرابة في ذلك ولا استغراب أيضًا.

كما كان حرص الرجل والرجل الذي أعنيه هو زبادي وشغله الشاغل بل حبه الأكبر هو خدمة مجتمعه الكبير، فقد عاش يحلم ومازال بمصر الجديدة، وأنا هنا لا أقصد بمصر الجديدة الحي بالطبع لأنها لو كانت الحي فما الداعي أن يحلم بها وهي واقع يسكن هو في أحد أحيائه ويكاد يمر يوميا بشوارعها وميادينها،

ولكن مصر التي يعنيها ويقصدها والتي طالما حلم بها وأرقته كثيرًا همومها ومشكلاتها هي مصر الأم، هي مصر الغد والأمل، مصر العلم والحضارة، مصر الحب والرخاء، مصر الأصالة والانتماء.

وكان زبادي دائما ما يتحدث مع كل رجال الأعمال إذا ما حانت الفرصة عن ضرورة المساهمة في بناء بلدهم والارتقاء بها، فمصر ودائما أبدًا هي الوطن والملاذ والنيل والمكان، فما أسهل أن تكسب أموالا وجاها وسلطانًا، لكن ما أصعب أن تشتري الأوطان، وماذا ستجني وأين ستبني وتستثمر إذا ما ضاعت من بين يديك وعلى حين غرة منك أوطانك.

والحمد لله أن زبادي وعيد وغيرهم كثيرون من رجال الأعمال لا يألون جهدا في سبيل خدمة بلدهم؛ لأن مصر قد سكنتهم وعاشت معهم وفي قلوبهم قبل أن يسكنوها ويعيشوا فيها.

وقد صدق زبادي وأسرته عهدهم بأن ما وصل إليهم من أموال في البداية هي رأس مال لشركة تساهمية شارك فيها كثير من المصرين واشتروا العديد من أسهمها، لكن تبقى الإدارة في يد زبادي وأسرته، لا لأنهم يمتلكون أكثر من خمسين بالمائة من الأسهم، وأيضًا ليس بسبب كونهم أبناء لمؤسس الشركة خليفة، ولكن لأنهم يمتلكون حب الكثير من البسطاء وعامة الشعب، لذا كان لزامًا عليه وكما قطع على نفسه العهد وأسرته أن تعود أرباح تلك الشركة في شكل مشروعات خدمية في كل المناحي الحياتية لهذا الشعب الأصيل الطاهر، حتى وإن كان هو نائبًا في مجلس الشعب عن محافظته،

لكن الحقيقة أنه نائب عن الشعب المصري كله ومصر تبقى دومًا وكما أشرنا سلفا هي شاغله الوحيد.

وفى يوم من الأيام كان لزامًا على وردة حضور مؤتمر للمرأة بأحد فنادق القاهرة الكبرى، وكانت أيضًا هناك جلسة لمجلس الشعب بمقر المجلس في شارع القصر العيني، وتصادف أن يكون ميعاد وردة وزبادي متزامنين وإن اختلفت الأمكنة والأهداف، لذا استقل الاثنان معًا سيارتهما فالطريق واحد وفي ذات الاتجاه، وانطلقت بهما السيارة وسط شوارع القاهرة المزدحمة، وهاهما يتأملان وجوه البشر وما حولهما وربما الفرصة مواتية للتأمل هنا وهناك من كثرة التوقفات وازدحام الإشارات.

وبعد انفراج أزمة الزحام قليلا إذا بكمين للمرور، وعندها يقول زبادي لوردة: وكأن الحكاية ناقصة كماين كمان. وبعد انتظار لم يكن قصيرًا مرت سيارة زبادي أمام الكمين وإذا بالرائد قائد الكمين يقول: اتفضل سعادة النائب، وعندها تهمس والدته في أذنه: ليه كمين هنا يا بنى؟ ويرد والده: الناس زهقانة من الزحمة ياحبيبي. يا ريت الكمين يبقى في مكان بعيد عن الزحام. لكن الضابط يتأسف لهما بسبب طول الانتظار ويقول موجهًا كلامه للهانم وسيادة النائب: ربما مكان الكمين مش مناسب لسعادتك والهانم وأكيد دي وجهة نظر تحترم، لكن قياداتي ورؤسائي عندهم هم كمان أسبابهم إن الكمين يكون هنا، وأعتقد إن الكلام ده ميزعلكش سعادة النائب ولا يضايقك يا هانم،

فانتم وكما أعلم يقينا تؤمنون بالتخصصات. وعندها تبتسم وردة ويبتسم زبادي ويتأسف الضابط للمرة التانية بل ويؤدي التحية العسكرية لهما قائلاً: تمام يا افندم. ويحييهما.

ولا تتعجب قارئي العزيز مما جاء في سياق الحديث المنصرم من كلمات مثل والده ووالدته والتحية العسكرية وتمام يا افندم فالرائد قائد الكمين ما هو إلا خليفة الابن الأكبر والولد الوحيد لزبادي ووردة، كما لا ننسى أن لديهما أيضًا الشقيقتين ندى والتي تلي خليفة مباشرة، وهي معيدة في كلية الفنون الجميلة وسالي الأخت الصغرى وهي طبيبة أطفال بمستشفى قصر العيني.

وبعد المرور من الكمين تتحدث وردة مع زبادي عن القاهرة والزحام والضجيج في كل مكان والأبراج السكنية والعمارات الشاهقة والمتناثرة هنا وهناك، مقارنة بالقرية وبساطتها وطيبة أهلها والمزارع والحقول والهواء النقي والنسيم العليل ومبانيها البسيطة، ويرد زبادي بأن القاهرة أصبحت مكتظة بسكانها وأهلها فهي المدينة العربية الأكثر ازدحامًا بل في كل منطقة الشرق الأوسط، ولم تعد الأنفاق تفيد ولم تعد الكباري ذات جدوى ولابد من حل والحل يكمن في إنشاء مدينة بديلة تكون هي العاصمة الجديدة.

ويواصل زبادي قائلاً: حتى القرية لم تعد كما كانت وكما وصفتها ياوردة، فللأسف التجريف والتصحر مستمر حتى أضحت بعض القرى لا كلها مدنا عشوائية صغيرة هجر معظم سكانها حقولها

ومزارعها وتلوثت مياهها وفسد طعامها ومأكلها حتى هواؤها لم يعد نقيا ونسيمها لم يعد عليلا إلا ما رحم ربي.

وفجأة تأمر وردة السائق بالتوقف وعندها يرنو زبادي بنظره فيدرك لماذا أمرت وردة السائق بالتوقف، لأنه يعلم جيدا فيم تفكر زوجته ويعي تمامًا مقصدها وما تهدف إليه، لذا ما كان منه إلا أن قال لها: لننزل سويا يا وردة. وبالفعل نزلا معًا وترجلا على قدميهما قاصدين نفس الهدف.

وعندها ابتسمت وردة وقالت: يبدو يا زبادي أننا قد وصلنا إلى الدرجة التي نقرأ فيها بشفافية ووضوح أفكار بعضنا البعض. ليرد زبادي: ليس من الآن فقط يا وردة، فهذا ما اعتدناه وتعودناه منذ اللقاء الأول، أمازلت تذكرينه وردتي؟

فأجابت وردة: كيف تسألني يا زبادي إن كنت ما زلت أذكره؟ إنه لقاء محفور وفي القلب مكانه، أذكره دومًا ومن أعماق فؤادي، تحدثني عنه دقات قلبي وتهمس به نبضاتي، فكيف أتذكره وأنا لم أنسه طوال حياتي؟ وهل ينسي من يتذكر في كل برهة تمر طرفات العين واللحظات؟

❊ ❊ ❊

١٤

بعد قطعهما لمسافة لا تتعدى خطوات قليلة في زمن هو الأطول مقارنة بعدد الخطوات التي تفصلهما عن الهدف المنشود، ولكن ربما تعمدا ذلك حتى انتهاء حديثهما الشيق قبل الوصول إلى ما يقصدان وما يرنوان إليه.

وربما أن الاثنين قد تملك الكبر منهما واشتعلت رأساهما شيبا ووضع شيبهما بصماته عليهما فما عادا قادرين على السير ولو لبضعة خطوات، وقد يكون هناك سبب ثالث حيث إنهما قد عاشا الرفاهية طويلا ولم تطأ أقدامهما الأرض منذ سنوت، لذا فقد أصبح من الصعب أن يرتجلا الآن كما كانا منذ أكثر من عقدين من الزمان.

ولكني وبكل تأكيد مع السبب الأول وهو أنهما قد تعمدا ذلك حتى يكملا حديثا كان كلاهما في شوق إليه وإلى سماعه وإلى أن يتذكرا الأيام الجميلة والأوقات السعيدة التي مرت عليهما، والتي أضحت نادرة في تلك الأيام بسبب انشغالهما المستمر بكل المشكلات الحياتية التي يعيشانها رغم ما يبدو للبعض بأنهما يعيشان الرفاهية ويتمتعان بالسعادة والتي يحسدهما عليها الكثيرون.

والآن أصبحا أمام الهدف، والهدف أوالغاية المرجوة لكليهما هو هذا المتسول أو الشحات المسن القابع على الرصيف ليمنحه زبادي ووردة مبلغا من النقود، وقد حرصا على أن يكون ذلك بعيدًا عن أعين المارة قدر الإمكان، ثم بدأ زبادي ووردة يتبادلان مع الرجل أطراف الحديث لتسأله وردة عن اسمه، فكان رد الرجل مفاجأة، إذ قال: اسمي خليفة يا بنتي. فينظر زبادي إلى وردة وتنظر وردة إلى زبادي بعد أن تملكتهما الدهشة والاستغراب ليعاود زبادي سؤاله: منذ متى وجودك هنا؟ ليجيب الرجل: من سنين ماتعدش يا بني. وتسأله وردة: هل لديك أولاد؟ ليجيب الرجل لكن بمفاجأة أخرى أكبر: إذ يقول المتسول: نعم عندي ولد واحد، لكن لعنة الله على الظالمين وكل من آذاني وابني الوحيد. فتستفسر وردة من الشحات قائلة: من ظلمك؟ ومن آذاك؟

فيرد الرجل: ظلمني وابني الوحيد من أخذ عجلي عنوة وغصبًا وزوج ابني جبرًا وقسرا من فاقدة الأهلية. وعندها كاد زبادي ووردة أن يسقطا على الأرض من هول المفاجأة، والتي كانت في كل كلام الشحات.

لكن وردة تعاود السؤال ولكن في هذه المرة لزبادي لا الشحات، حيث تسأل سؤلا استنكاريًا: هل مات والدك فعلا يا زبادي؟ أكاد أشك بعد ما سمعته من الرجل. فيرد زبادي على وردة قائلاً: معقول يا وردة اللي انت بتقوليه ده؟ دا إحنا دافنينه سوا.

فترد وردة متسائلة: وما هذا الذي أسمعه؟ وعندها يسأل زبادي الرجل: وما اسم ابنك يا حجنا؟ فيرد الرجل: اسمه زبادي. ليخبط عندها زبادي رأسه بكلتا يديه.

وتتمالك وردة نفسها وتسأل الرجل: ما اسم فاقدة الأهلية والتي تزوج بها ابنك؟ فيرد الرجل: أم الشحات. وعندها يسأل زبادي وردة: هل مات أبي فعلا يا وردة؟ لتجيبه وردة: جرى إيه يا زبادي داحنا دافنينه سوا.

لكن زبادي ما لبث أن غضب وتحدث مع الرجل بحدة قائلاً: انت كداب ونصاب. وأثناء ذلك يأتي أحد الجرسونات من الكافتيريا المجاورة لمكان الشحات بكوب من الشاي وينادي على الشحات قائلاً: جايبلك كباية شاي أهي يا عم خليفة. ثم يواصل الجرسون قائلاً: ادعيلي يا عم خليفة. فيدعو له الشحات بالتوفيق وأن يحيطه الله برحمته وأن يعافيه، فيرد الجرسون ممنونا للشحات وقائلاً: ربنا يعترك في ابنك زبادي يارب وتلاقيه ويرتاح بالك، ويفكه ربنا من العبيطة أم بدوي. فيقاطع الشحات وزبادي ووردة معًا قائلين: اسمها أم الشحات.

وعندما رأى زبادي ووردة وسمعا ما قاله الجرسون وبعفوية حتى وإن كانت عفوية عشوائية انتابهما شيء من الاندهاش والحيرة يلفها الدهشة والوجوم وعندها يسأل زبادي وردة مستنكرًا ما يدور حوله وقائلاً: أين أبي يا وردة؟ فترد وردة باستهجان: ماذا أقول لك يا زبادي؟ ربما فوق الشجرة.

وتواصل حديثها: لا تلمني يا زبادي على ما صدر مني فقد كنت في البداية أشك في حديث الشحات فأصبحت الآن وبعد كل ما سمعته أشك في نفسي. وواصلت تقول: من أنا يا زبادي؟ ومن أنت؟ وعندها يقاطع زبادي: معك كل الحق في كل ما تقولين، إنني أخاف أن أسأله مرة أخرى بعد كل ما سمعت.

لترد وردة قائلة: وأنا أيضًا أخشى أن أسأله فربما يخبرني تلك المرة بأنه جد ابني خليفة، لكن زبادي استجمع كل قواه وسأله: من أين جئت يا عمي خليفة؟ ليجيبه الشحات: ماذا تقصد بسؤالك يا بني؟ فيرد زبادي: أقصد قريتك ومسقط رأسك.

فيقاطع الشحات: لقد فهمت ما تريد معرفته، إنها قرية الكواملة. وعندها تنادي وردة على زبادي من أجل أن يتصل بالسائق قائلة: رن على السواق يا زبادي أنا خلاص مش قادرة أصبر أكتر من كدة.

وبالطبع هي تريد أن تمضي بعيدًا عن هذا المكان، فلم تعد تستطع الوقوف ولا يمكنها السير على قدميها بعد كل تلك المفاجآت المدوية والمتتالية والتي كان آخرها اسم قرية الكواملة التي هي قريتهم،

ليرد عليها زبادي قائلاً: لا تنزعجي سأتصل ولكن بالشرطة من أجل إلقاء القبض على هذا اللص الأفاق والمحتال اللئيم، فلم يكفه أنه شحات ومتسول بل إنه يدلس ويكذب أيضًا.

وأخرج زبادي موبايله ولكن وقبل أن يلمسه بأنامله تحدث مفاجأة أخرى،

فالشحات المسن المسكين والذي لا يقوى حتى على الجلوس كما يبدو ينتفض واقفا وكأنه شاب في العشرينات من عمره ليستعطف زبادي قائلاً: سامحني سعادتك واغفرلي زلات لساني. ثم يستدير إلى وردة ويكرر نفس الكلام قائلاً: أنا أخطات يا هانم أنا متأسف جدًا. وعندها تستفيق وردة من غيبوبتها أو قل الدهشة والحيرة التي ألمت بها فهي الآن تستطيع الوقوف على قدميها والاستماع لما يقوله الرجل، لكن زبادي يقاطع الرجل الكذوب ويطلب منه بطاقته الشخصية فيرد الرجل: ولماذا سعادتك؟ أنا آسف معاليك على كل كلمة قلتها كدب وأرجوك تسامحني وتغفرلي زلاتي وهفواتي.

فتقاطع وردة قائلة: إن أسلوب هذا الرجل لا ينم أبدًا عن أنه شحات، فيرد زبادي لذا طلبت منه هويته لأقرأ بياناته وأعرف حكايته إيه.

وعندما يخرج الرجل بطاقته الشخصية أو بطاقة الرقم القومي تكون المفاجأة، والمفاجأة لم تكن في اسمه المدون في البطاقة إبراهيم لطفي جاد، وليس خليفة كما ادعى ولكن كانت في مهنته، فالرجل يعمل مديرًا لإحدى المدارس، وياللعجب فخليفة كانت مهنته عاملا زراعيًا بسيطًا لا يقرأ ولايكتب، وهنا تكمن المشكلة أو المعضلة، فمن أين جاء هذا الأفاق بخليفة وأم الشحات والعجل والكواملة وكل تلك الألغاز التي زلزلت الأرض من تحت أرجل زبادي ووردة وأدخلتهما في بحور الحيرة والشك لدرجة أن وردة كاد أن يغمى عليها من تكرار مفاجآت الرجل وألغازه،

ولكننا وبكل تأكيد سنرى تفسيرًا لكل ماحدث في السطور التالية وعلى لسان الشحات المدير أو المدير الشحات، فماذا سيقول لنا؟
يقول المدير المتسول بعد رحيل خليفة الأول الرجل الطيب الخلوق أصبح مكانه خاليًا لا يشغله أحد وأضحى رصيفه شاغرًا في انتظار الوافد الجديد، ولكن الوقت لم يطل فسرعان ما جاء المكان شحات آخر كان دائم التردد على خليفة خاصة في أيامه الأخيرة، وبالطبع علم من خليفة قصته كاملة.

وقد كان خليفة رحمة الله عليه كلما صادفه أو جالسه أي شخص يحكي ويقص عليه كل روايته وابنه أملا في أن يصل صوته وما يقوله إليه، فلعل أحدهم يتقابل معه قدرًا أو يتصادف مع من يعرفه أو من يدله عليه، ولما كان معروفا عن خليفة طيبته وسماحته وحسن خلقه وإيمانه فالرجل رحمة الله عليه برغم امتهانه للشحاتة وما تتطلبه تلك المهنة في عرف ممتهنيها من أن يكون صاحبها رث الثياب والملبس كما أنه من الأفضل أن يكون ذا عاهة، فذاك يفيد كثيرًا في كسب تعاطف المارة والمترددين على المكان ومن ثم الاستحواذ على بعض نقودهم.

لكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة لخليفة، فالرجل كان نظيفًا دومًا في ملبسه وفي مأكله ومشربه كما كان أمينا وصدوقا لا يكذب أبدًا ولا يتجمل إطلاقا.

كما أنه من المعروف والشائع في أوساط الشحاذين أن خليفة رحمة الله كان يبغض تلك المهنة وأقصد بالمهنة هنا الشحاتة أو التسول لكنه دفع دفعًا إليها فلم يكن هناك بد ولا مناص في الإفلات منها، فالمسكين كان عجوزا مسنا مريضًا عليلا لا يقوى على أي عمل بل لا يستطيع حتى الحركة إلا بصعوبة بالغة، وبالطبع كان حريصًا أن لا يعود إلى قريته حرصًا على حياة ابنه.

ورغم كل ما هو فيه إلا أنه حاول مرارًا أن يعمل في أي عمل يدر عليه دخلا يفي بأدنى احتياجاته الحياتية اليومية ويكفيه مذلة السؤال لهذا أو ذاك لكن وما باليد حيلة كما يقولون، وبعد أن تورمت قدماه من السير بحثا عن فرصة للعمل طوال النهار والليل دون فائدة أو جدوى، وبالطبع وكما ذكرت كان يستحيل عودته إلى بلدته مرة أخرى كما أسلفنا.

ولقد كان لزامًا عليه أن يستريح حتى لو كان على الأرض مرقده والرصيف عنوانه، وهو ما حدث بالفعل لتبدأ رحلة المرحوم خليفة الفريدة في عالم الشحاتة والتسول.

حيث إنه رحمة الله عليه وحسب ما وصلني من أخباره لم يمد يده لأحد فكان يجلس جلسته اليومية المعتادة والناس تأتي إليه وتضع النقود في كيس بجانبه، وتلك مدرسة جديدة في عالم التسول انتهجها خليفة وابتدعها حتى وإن كانت بغير قصد منه، وهي ما أكسبته تفرده وانفراده دون غيره من المتسولين.

ولكن وللأسف عندما جاء من يخلفه وفي نفس المكان وعلى ذات الرصيف أراد أن يسير على نفس درب خليفة الأول ويكسب تعاطف الجميع، ولكن كان من الصعب عليه ذلك حتى بعد أن سمى نفسه خليفة منتحلا الاسم من صاحبه الأصلي والذي كان قد رحل.

ولم يكفه ذلك بل قد سطا أيضًا على قصة حياة خليفة وإن شئت قل سيرته الذاتية وكل حكاياته عن ابنه وفلذة كبده الوحيد زبادي. وعليه أصبح خليفة الجديد أو خليفة الثاني يحكيها للناس كما كان يقصها خليفة الأصلي وكأنه البطل الحقيقي لكل ما جاء فيها من أحداث معتقدًا أنه بذلك قد يكسب تعاطفهم وبالتالي يسطو على بعض نقودهم أو أموالهم، ناسيا أن زبادي الأصلي كان يحكي للناس حكايته هادفًا نشرها وكل مبتغاه منها أن تؤدي به إلى العثور على ابنه وأن يجتمع شملهما مرة أخرى، ولم يكن المال هدفا له كما أسلفنا رغم أنه جمع منه مبلغًا غير قليل أو جمع له لأن الرجل لم يسع إليه في يوم من الأيام.

❊ ❊ ❊

١٥

في أواخر أيام خليفة الثاني والذي يدعى حمدي أبو حسين تعرفت عليه فقد جئت القاهرة هادفا أن أمتهن الشحاتة قاصدًا ومتعمدًا، فقد كنت مديرًا كما علمت لإحدى المدارس، وكان كل ما أتقاضاه من مهنتي القديمة لا يكفيني وأسرتي إلا للخمسة أيام الأولى من أول كل شهر، وكان لزامًا علي أن أستلف أو أقترض من الآخرين، وبالطبع لا يستطيع من هو في حكم ظروفي أن يرد ما استلفه أو اقترضه مرة أخرى، وعندها أدركت أن ما أفعله ما هو إلا الشحاتة نفسها والتسول بعينه، حتى وإن كانت شحاتة مقنعة وتسول مستتر.

لذا حصلت على إجازة بدون راتب من المدرسة والإدارة وجئت إلى القاهرة فارًا من ديوني والديانة، وبحثت عن المكان المناسب في كل أحياء القاهرة ولكن دون جدوى، فقد كان ما يطلبه الشحاتون كخلو رجل لأي مكان يفوق إمكانياتي وقدراتي المادية، فكما تعلمون أنني قد جئت مفلسًا لا أمتلك شيئا، وليس أمامي سوى التقسيط دون دفع أية مقدمات.

لكني لم أفقد الأمل وبعد جهد جهيد وصلت هذا المكان الذي نحن فيه الآن حيث إن صاحبه خليفة الثاني كان وكأنه قد أحس بدنو أجله وقبل أن يعود إلى بلده ليوفق اوضاعه المادية قبل رحيله

باعني هذا المكان بخمسين ألف جنيه على خمس دفعات شهرية يبدأ القسط الأول منها بعد شهر من تاريخه.
وعليه وعندما التزمت معه وسددت كل الدفعات في مواعيدها كان الرجل كريما معي لذا أهداني القصة وكل حكاياته والتي ماهي إلا قصة وحكايات خليفة الاصلي وسيرته الذاتية لأصبح أنا خليفة الثالث.
والحمد لله أنني وبمجرد ممارسة عملي الجديد ندمت على ما أضعته من عمري في النظارة والادارة حيث إنني وفي شهر واحد فقط سددت كل ديوني ومديونياتي وادخرت الباقي لكن وحتى الآن وبعد مرور خمس سنوات أصبح لي رصيدا محترما في البنك بالاضافة لامتلاكي لاحدى المدارس الخاصة المشهورة الآن بالاضافة لعمارتين وفي ارقى الاحياء بالقاهرة وعليه فكرت في اعتزال مهنتي تلك والعودة لإدارة مدرستي الجديدة بل أني أفكر في انشاء قسم جديد بها لتعليم فنون الشحاته وسوف اقوم بنفسي بالتدريس فيه.
حيث إنني قد قررت أن أنهي إعارتي حيث يظن الغافلون أنني في إعارة خارجية كما أفهمتهم قبل رحيلي والذين أعتقد أنهم مازالوا كذلك فأي إعارة تلك التي تدر كل تلك الأموال؟
وأنا الآن أنتظر فقط الزبون الذي يقدر قيمة المكان رغم أنه قد جائني الكثيرون لكن ما عرضوه لم يزد عن مائتي ألف جنيه رغم أني قد دفعت فيه خمسين ألف جنيه من خمس سنوات مضت

وكما سبق وذكرت سلفًا وتلك هي كل حكايتي وكل قصتي مع الشحاتة والتسول.

وعندها يسأل زبادي مدير المدرسة الشحات ماذا تعلم عن خليفة الأول بعد مماته؟ وماهى حكاية الجرسون الذي أتى إليك بالشاي؟ فيجيب الرجل: بالنسبة للسؤال الأول لا أعلم شيئا عن خليفة الحقيقي وكما أخبرني خليفة الثاني أن الرجل خليفة الأول قد مات قبل أن يعثر على ابنه ومن المؤكد أن أمواله قد ذهبت إلى صاحب النصيب وسعيد الحظ الذي صادفه حين وافته المنية والتي أعتقد أنها لم تكن أموالا بل ملاليم بل إني أجزم أنها لم تتعد المليون بأي حال من الأحوال، فالمرحوم خليفة الأول كان عفيفا لا تشغله الأموال ولا يفكر فيها.

أما بالنسبة للجرسون فهذا اتفاق مبرم بيني وبينه إذا مارأى من يجالسني أو يحادثني طويلا خاصة إذا كان ضيوفي من علية القوم كما أنتم، فعليه أن يأتيني بالشاي ويفعل كما فعل بالتمام والكمال.

وتسال وردة المدير الشحات: هل ستعلم الاولاد في مدرستك شيئا غير فنون الشحاتة يا مدير ؟ فيجيب الرجل بالنسبة لتعليم فنون الشحاتة هذا ما افهمه واتقنه لكن هناك اساتذة لتدريس العلوم الحياتية الاخري وفي كل مناحي الحياة العلمية منها والادبية والتي لا طائل من وراءها غير انها تزيد اعداد المتسولين والعاطلين سنويا. أما بالنسبة لعلم فنون الشحاتة والذي سيكون مدخله الشحاتة

والتسول الأسباب والعلاج، أما جوهره فهو كما أشرت فنون التسول والشحاتة وذلك حتى لا نقع تحت طائلة القانون، وتلك سيدي وسيدتي هي العلوم الحديثة أو الأبديتد والتي تفيد الإنسان وتحقق له الأمال والطموحات وتخلق أجيالا من المستثمرين ورجال الأعمال، وعندها يقاطع زبادي سائلا الشحات: ماذا تقصد وتعني بما تقوله؟ فيجيب المتسول المدير شارحًا وسائلا زبادي في ذات الوقت حيث يقول: سيدي ما جدوى أن تكون طبيبًا أو معلمًا أو مهندسًا وانت لا تملك قوت يومك وإن أردت أن تملكه وبعض الكماليات البسيطة فلزامًا عليك أن تكون لصًا أو مرتشيًا أو مفسدًا وإن سرق الطبيب وارتشى الموظف وأفسد المهندس والمعلم فلنقل على الدنيا السلام، لذا أعتقد وانتم بكل تأكيد كذلك أن الشحاتة والتسول أقل جرمًا بكثير من الإفساد والرشوة والسرقة، فالسارق قد يقتل إن رأى أن أمره سيفتضح، والمرتشي يقتل نفسه قبل الآخرين، والمفسد ينحر شعبًا ويقتل أمة، أما التسول فلا ضرر ولا ضرار.

وهذا كل ما أردت أن اقوله لكما سيدتي وسيدي فإن أردت أن تسلمني للبوليس فأنا تحت أمرك، ومستعد حيث سأقضي ليلة أو ليلتين على أقصى تقدير وسيضيع إيراد الليلتين،

لكن ليس هناك مشكلة أن تخسر عشرة آلاف جنيه وعندها ساعتبرهم زكاة عن صحتي، لكني حتما سأعود مرة أخرى لمكاني بعد الليلتين.

وعندها يرد زبادي متهكما قائلاً: سيدي إيه وسيدتي إيه؟ دانت سيد الكل دانت الأستاذ والمعلم، داحنا تلامذة صغيرين جنب حضرتك، وعندها توجه وردة حديثها للمتسول المدير وتقول له: فلسفتك غريبة قوي في تفسيرك لحاجات كتير، يا ترى انت مقتنع باللي بتقوله؟ فيقاطع زبادي وردة قائلاً: إذا كان أنا قربت أقتنع وتلاقيكى انتي كمان اوشكتي.

ياللا بينا يا وردة بلاش نخسر الراجل أكتر من كده ونعطله عن شغله، داحنا بقالنا معاه يجي ساعة تلاقيه خسر فيها أكتر من ألف جنيه، واحنا كنا جايين نعطف عليه وندیله مية ولا ميتين جنيه، أتارينا كده خسرناه أكتر من تمنمية جنيه، ياللا بينا يا وردة أحسن مانقعد جنبه، ولا نديله خلو رجل مناسب وناخد المكان، وبالفعل ينصرفان بعد أن يتأسفا للرجل بسبب تضييعهما لوقته وهما غير مصدقين ما يحدث ويضربان كفا بكف. لكن وردة تحاول أن تخرج نفسها وزبادي من دائرة الحيرة والدهشة والتي اوقعهما فيها المدير الشحات حيث تذكر زبادي بالايام الخوالي وتقول له لقد جئنا إلى هنا منذ اكثر من ثلاثين عاما خلت وفي نفس المكان جلسنا وقد التقيته هنا عمي خليفة رحمة الله عليه فمازال لقاؤه محفورا في قلبي خاصة بعد أن علمت أنه رحمة الله عليه والدك.

وعليه ما أن لمحت الشحات اليوم وفي المكان نفسه وبعد كل تلك السنين حتى وجدت نفسي أهرول اليه مدفوعة وكأني مسلوبة الإرادة.

ربما يكون هو الحنين والشوق للمكان ربما الإحساس بقيمته ومعناه ربما محاولة غير مقصودة بالرجوع لماضٍ قد ولّى وزمن قد انقضى.
ثم ما لبثت أن سألت وردة زبادي سؤالا يبدو غريبًا حيث قالت: لماذا تبعتني يا زبادي؟ هل خوفا على وردتك أم حرصًا على صحبتها واصطحابها وأينما ذهبت؟ أم أنه وكما أشعر أنا حنين إلى الماضي والمكان؟ فيجيبها زبادي ويبدو فعلا أنه خرج من دهشته وحيرته بعد كلام وردة قائلاً: لقد تبعتك وردتي بسبب كل ما قلتِه.
لكن هناك سبب آخر سأبوح به لحبيبتي هو ما دفعني للنزول من السيارة واصطحابك حيث الشحات، ألا وهو حرصي على أن لا أضيع الفرصة في تلكم المرة كما أضعتها مسبقا. فسألته وردة: أية فرصة يا زبادي؟ وأية مرة تقصد؟
فأجابها: في المرة الأولى والتي كانت منذ ثلاثين عامًا تقريبا، والتي مازلنا نذكرها ونتذكرها حيث إنه في تلك المرة تركتك وحدك تذهبين للشحات المسكين رحمة الله عليه مدفوعة بإحساسك وشفافيتك، لكن عدم مرافقتي لك خسرت بسببها الكثير، وكأن الله عاقبني بعدم ذهابي معك، ويكفي أني لم أجلس مع والدي وأتمتع بلقياه ورؤياه سوى سويعات قليلة كان من الممكن أن تكون أيامًا وربما أطول لو أني قد طاوعتك حينها.
فردت عليه وردة: لماذا تلوم نفسك وتجلد ذاتك وأنت لم تفعل جرمًا بل لم تخطئ خاصة فيما يتعلق بذاك الموضوع، فمن الطبيعي حينها أنك لم تذهب معي حيث مكان الشحات، كما أنك

لم تمنعني حين طلبت منك أن أذهب إليه، هون عليك يا زبادي ولا تحمل نفسك أكثر من طاقتها.

ولا تنسى يا حبيبي أننا نخطو ونسير وفق مقادير مكتوبة وأقدار تأتينا ولا نأتيها، وهي من تختار الوقت والمكان وترسم الطريق الذي نخطوه ونسير عليه، وتحدد كل الأبعاد والمسافات من أول البدايات حتى نقطة النهاية.

أما نحن فلا دخل لنا ولا حيلة، فعندما تقول الأقدار كلمتها فلابد من وقوعها وإن كان ذلك حتميا، فيجب علينا أن نعلم أنه لا مناص ولا بد، فقد كان لزامًا أن تقع الأقدار وبالضبط كما وقعت وكانت، وفي ذات المكان والزمان، ويجب أن تعلم أيضًا أن "لو" لا تغير من الأمر شيئا ولا تعيد الأحداث التي انقضت لأنها أحداث وقعت ووفق إحداثيات قدرية مسبقة وبذات النمط، لذا تبقى دومًا مقدرات مكتوبة لا حيلة لنا ولا دخل فيها.

ويقاطع زبادي قائلاً: كل ما قلتِه رائع وواقع نعيشه ويعيش فينا وحقيقة لا ريب فيها ومسلم بها، كما أني لدي إيمان ويقين بالأقدار والمقدرات، لكن ما قصدته أنه لابد من السعي والجد والاجتهاد والأخذ دومًا بالأسباب والمسببات والبعد عن الاستكانة والتواكل وذلك في كل مناحي الحياة التي نحياها ونعيشها،

أما بالنسبة لكلامي بأنه في تلك المرة كانت ستفوتني الفرصة وما هو مقصدي من ذلك، نعم إنها الحقيقة ويبدو أنني لم أتعلم دروس

الماضي جيدًا، لكن ثقتي في إحساسك وطهرك وشفافيتك ولمعرفتي ما تقصدينه ونواياك الطيبة تتبعتك حتى لا أخسر الفرصة مجددًا.
لكنها عادت وسألته: ما تلك الفرصة التي كادت أن تضيع منك هذه المرة ولكنك ولله الحمد لم تدعها تضيع كما ضاعت الأولى؟ فيرد زبادي: الفرصة أنني قد تذكرت شيئا كنت قد نسيته وانشغلت بغيره ألا وهو عالم التسول وما يحتويه من خفايا وكذلك مافيا الشحاتة ودهاليزها وخباياها، فماذا كان سيحدث إن لم أتبعك في تلك المرة؟ بالطبع كنت سأخسر كثيرًا وربما أكثر مما خسرته في المرة الأولى، على الأقل كانت ستفوتني محاضرة الشحات المدير بكل ما فيها من فلسفات ورؤيا وشطحات، لابد لمن يتعرض لمشكلة الشحاتة والمتسولين أن يكون ملما بها وبكل تفاصيلها وخفاياها، وعليه سأطرح مشكلة الشحاتين في جلسة اليوم بالمجلس وفي كل الجلسات القادمة وسأجد وأسعى أنا وزملائي في إيجاد الحلول لها، وأرى أنه يجب علينا أن نفعل شيئا ولابد من أن نفعل خاصة بعد ما سمعته من المدير الشحات والذي أبهرنا بتحليلاته الفلسفية العجيبة عن عالم الشحاتة أو مافيا المتسولين، كما تعلمت منه الكثير عن ذلك العالم العجيب مما يساعدني كثيرًا وزملائي في إيجاد الحلول، كما يجب عليك وزميلاتك أن تناقشن نفس الموضوع في مؤتمر المرأة.
فتجيب وردة: لقد ناقشناه مرارًا لكن لم يحدث أي استجابات.
فأجابها زبادي: سيحدث بإذن الله، وعلى العموم وردتي يكفيك

سعيك الدؤوب في إيجاد حل لمشكلة أطفال الشوارع، فنتائج ما تسعين إليه مبشرة وبفضل جديتكن وإخلاصكن بالإضافة للشفافية والحاسة السادسة لديكِ أو فراستك دون غيرك من النساء.

فترد وردة: إن موضوع أطفال الشوارع مازال في بداياته، فالقضاء على ظاهرة أطفال الشوارع يحتاج تضافر جهود جهات عدة، فلابد من وجود لجان متخصصة متفرغة تأخذ الموضوع مأخذ الجد، ويجب أن تؤمن تلك اللجان بحتمية إيجاد حل جذري لتلك الظاهرة يستأصلها من جذورها وينهيها للأبد.

لذا يجب أن تضم تلك اللجان علماء ومتخصصين في العلوم الاجتماعية ومتخصصين في الطب النفسي والسيكولوجي، بالإضافة لمتخصصين في مجال التعداد والإحصاء، وقطعًا لابد من تضافر جهود رجال الأعمال والاستفادة من مساهماتهم وتفعيل مشاركتهم للحكومة والتي سيقتصر دورها على توفير سبل الجدية والالتزام بالإضافة إلى الإشراف الكامل على كل الخطوات من البداية للنهاية.

ولتبدأ أولى خطواتنا بعمل دراسة تشمل حصر لهولاء الأطفال، ثم دراسة جغرافيا المكان وتحديده من حيث أماكن تواجدهم وتوزيعهم على المحافظات وأي المحافظات تحتوي العدد الأكبر، وأيها الأقل وبعد الحصر الجغرافي يتم تصنيفهم حسب الفئات العمرية والأعمار السنية ثم حسب الجنس وحالاتهم الفئوية، وبعد أن يتم تقسيمهم حسب التصنيفات المذكورة وتجميعهم في دور

رعاية أو حتى كامبات ومعسكرات المهم أن تحتوي تلك المؤسسات أو المعسكرات والكامبات على مدرسة تناسب الأعمار السنية الموجودة، بالإضافة للملاعب الرياضية والترفيهية، كما لابد من توافر ورش عمل تدريبية خاصة للفئات العمرية الأكبر وما يناسب الموجود في الدار أو الكامب إناثًا كن أم ذكورًا، بالإضافة لتوفير العدد الكافي من المتخصصين في الطب النفسى والسيكولوجي والعلوم الاجتماعية والبيلوجية وكذلك التخصصات البيئية، وأن يكون كل هؤلاء المتخصصين مقيمين إقامة دائمة وبالتناوب داخل تلك الدور والمؤسسات والكامبات، وذلك حتى تتم المتابعة والدراسة والعلاج على مدار الأربع والعشرين ساعة، هذا بالإضافة لتوفير الأمن والأمان الكافي، ومن ثم نستطيع تقويم هؤلاء ونستطيع أن نخرج منهم كوادر يمكنها أن تنضم إلى المجتمع وتساعد في تنميته وإنمائه لا أن تعيش عالة وعبئا عليه وتثقل كاهله وتعطل من مسيرته وتحركاته نحو مستقبل أكثر إشراقا لمصر التاريخ والحضارة.

أعتقد أنه قد تم عمل تلك التجربة في أواخر القرن قبل الماضي، وأعتقد أيضًا أن نتائجها كانت مبهرة للغاية لكن للأسف لم تستمر طويلا، ولك أن تعرف أن تلك التجربة قد أفرزت لنا رجالا ربما من بينهم من ساهموا في بناء المجتمع وسطروا تاريخا للدولة المصرية وكان لهم دورهم الوطني البارز ودافعوا عن الشعب المصري في كل المحافل الدولية إبان الاحتلال الإنجليزي، وها نحن

قد بدأنا ونحاول أن نكرر التجربة بعد تطويرها لتناسب العصر الذي نحن فيه ونتلافى أية سلبيات تكون قد واجهتها التجربة الماضية، واتمني أن تنجح تجربتنا الحالية وستنجح بإذن الله طالما وجد الحب وتحددت الأهداف وتوحدت الرؤى.

فدار الأيتام التي أنشئت في القرية من أجل خدمة كل الأطفال الذين حرموا الأم والأب في محافظتنا ربما هي النواة، لكن من المؤكد أننا في حاجة ماسة لإنشاء العديد والعديد من تلك الدور أو المؤسسات أو الكامبات ولا تهمنا المسميات، المهم أن تحتوي أي من المسميات تلك على المدرسة والإقامة الداخلية والإعاشة ووسائل الترفيه والتريض بالإضافة للكوادر المتخصصة التي أشرنا إليها وكل وسائل الأمن والأمان.

وها هو زبادي يمسك بأطراف الحديث لكنه لا يتحدث عن أطفال الشوارع إذ يبدو أن الرجل يحترم التخصصات، حيث إن وردة لها اليد الطولى في هذا الموضوع وهي الأقدر والأنسب على الأقل من وجهة نظره، وسوف يشرح لنا الرجل ويفسر لماذا هي كذلك لاحقا وإن كنت لا أؤيده في شرحه ولا تفسيره، ووجهة نظري تلك لا تنفي مطلقا أن تكون وردة كما نعتها زبادي بأنها الأنسب، لكن ما قصدته أنني فقط لست مع ما جاء في شرحه وتفسيره لماذا هي الأنسب والأقدر فيما يخص أطفال الشوارع، وهو كذلك فيا يخص الشحاتة والتسول. وبما أن الرجل يحترم التخصصات كما أسلفنا إذا فلنسمع ما أتحفنا به عن تخصصه وهو التسول والشحاتة،

حيث قال إن ظاهرة التسول التي ربما تكون قد تفشت وانتشرت بشكل يلفت الأنظار إليها ويحتم علينا جميعًا كمجتمع أن نتصدى لها لا من خلال الحل الأمني والحملات الانضباطية فقط ولكن بالعلم أيضًا.

فيجب أن تحصى أعدادهم وأماكن تواجدهم وتجمعاتهم ونوعيتهم، ولا أقصد بنوعيتهم هنا النوع أو الجنس ذكر أم أنثى، ولكن ما أقصده أن هناك نوعين من المتسولين أو الشحاتين؛ النوع الأول منهم هو النوع ثابت المكان أي أن مكانه معروف وكأنه مكتوب باسمه، وهؤلاء عادة ما يكون أكثرهم أو غالبيتهم من الذكور كبار السن وأصحاب العاهات سواءً كانت عاهات طبيعية أو مصطنعة لزوم الشغلانة كما يطلقون عليها.

وأنا هنا لا أدخل في تفاصيل، فأعتقد أن الجميع يعلم هذا يقينا ويفهم حيل وألاعيب هؤلاء جيدًا، وهذا النوع من المتسولين يذهب إليهم بعض الناس وباختيارهم ويمنحونهم النقود، وفي الغالب من يمنح النقود يعلم تمامًا ماهية الشحات الذي يمنحه المال، ويعلم أيضًا خداعه وتحايله، ومع ذلك يدفع له ربما لأنه يعتقد أن ما يدفعه هو لله لا للمتسول.

أما النوع الثاني من المتسولين فهو النوع المتحرك، وهؤلاء عادة أكثرهم من الشباب وأغلبهم من النساء، فالمتسول المتحرك لابد أن يكون نشيطا متحركًا لديه لياقة بدنية عالية، حيث إنه قد يقطع مسافات طويلة تتعدى بضع كيلومترات في اليوم الواحد، فهو عليه

أن يلف على مقاهي وكافيهات مدينة كاملة أو نصفها ناهيك عن المولات والمحلات والأسواق، وذلك في المدن غير القاهرة والإسكندرية، أما في المدن الكبرى فربما عليه أن يتحرك في حي كامل وربما أكثر من حي يوميًا.

وإذا كان متسولو النوع الأول يندر أن تجد أحدهم بدون عاهة، ففي النوع الثاني يندر أن ترى العاهات، ربما قد يستبدلونها بحمل الأطفال خاصة الصغار من أول الطفل الرضيع حتى خمس أو ست سنوات بحد أقصى، وفي النوع الأول يأتي إليه المانحون باختيارهم، لكن في النوع الثاني يأتي المتسول مانحيه ويأخذ منحته لا باختيارهم لكن ربما بإلحاحه وإن شئت قل غتاتته وبروده، كما أن النوع الأول يفضل أن يكون رثًا في ثيابه وملبسه،

أما النوع الثاني ففي الأغلب الأعم تراه مهندمًا وعنده حد أدنى من اللباقة واللياقة في حديثه وسؤاله.

مما سبق نخلص إلى أن التسول لا يرتبط بسن فهناك الطفل والشاب والكهل والعجوز، ولا يرتبط بمكان فإذا كان بعضهم وهم غالبًا من النوع الأول لهم أماكنهم الثابتة المعروفة والتي يرتادوها يوميًا، نجد أن السواد الأعظم منهم وهم في أغلبهم من النوع الثاني من المتحركين، لذا لابد أن تكون الدراسة العلمية لهؤلاء مبنية على معرفة الدوافع أي الأسباب التي دفعتهم لامتهان التسول واعتباره مهنة لهم تدر عائدًا لابأس به عليهم، لذا لابد من توقيع الكشف

الطبي عليهم وإيداعهم مصحات نفسية وعلاجية إن اقتضى الأمر ذلك،

وبعد أن يتم استشفاؤهم يتم توفير فرص عمل كريمة لهم، وإن عادوا بعد ذلك وجب تغريمهم، وإن استمروا يتم تغليظ العقوبة عليهم وملاحقتهم حتى يتم إصلاحهم وتأهيلهم بإذن الله.

وأنا متيقن تمامًا أنه يمكن القضاء على تلك الظاهرة إذا ما خلصت النوايا وتضافرت الجهود، كما أنوه هنا أن القضاء على ظاهرة التسول أو الشحاتة قد يساعد كثيرًا في القضاء على ظاهرة أطفال الشوارع؛ لأن الغالبية من المتسولين كانت بدايتهم أطفال شوارع، كما أن الأطفال المساكين الذين يستغلهم المتسول أو المتسولة هم بكل تأكيد نواة لأطفال شوارع جدد.

وفي النهاية يقول زبادي لوردة: ليس هناك شيء اسمه المستحيل، ولكن عوائقنا تبقى دومًا هي التسيب والإهمال واللامبالاة، ولا أقول هنا العشوائية، لا لأنها ليست موجودة، ولكن لأني قد مللت الكلمة لا بسبب أنه قد تم ذكرها مرارًا وفي كل المسطور آنفًا، ولكن لأنه سيتم تكرارها كثيرًا فيما هو قادم من سطور وكلمات.

ولسوف أبذل قصارى جهدي في سبيل القضاء على ظاهرة التسول، وأعتقد أنني سأنجح في ذلك وبكل تأكيد وبمساعدة زملائي في المجلس بجهدهم وإخلاصهم ورفاقي من رجال الأعمال بدعمهم ومساهمتهم. كما أني واثق من نجاحك الأكيد وكل عضوات وأعضاء فريقك في القضاء على ظاهرة أولاد الشوارع،

وسوف يتعاون معك الكثير من أبناء مصر المخلصين، فأنا من ناحيتي ساكرس ما بقي من عمري في سبيل القضاء على ظاهرة التسول من أجل مصر خالية من المتسولين، وأنت كذلك للقضاء على ظاهرة أطفال الشوارع، وسبحان الله وكما يقولون الطيور على أشكالها تقع، وكل حلة تروح لغطاها.

وعندها تسأل وردة زبادي قائلة: كل اللي قلته جميل من الأول للآخر، لكن إيه حكاية الطيور على أشكالها تقع والحلة وغطاها؟ فيرد زبادي قائلاً: أنا كنت أعتقد أنك قد فهمت ما أرنو إليه وأقصده، لكن يبدو أن الحاسة السادسة قد أنهكت لديك وأخشى أن تكون مدة الصلاحية قد انتهت.

فترد وردة قائلة: الحمد لله على الخمسة الباقين من حواسي يا زبادي، ياريت تقول لي تقصد إيه؟ فيرد زبادي: ما أقصده أنني قد وجدت نفسي مدفوعًا في اتجاه مهنة الشحاتة دون أن أدري، فها أنا ألملم أوراقها وأمسك بكل خيوطها وأبحث عن علاجها وأناقش أسبابها وعواقبها، فما الدافع الذي يدفعني إلى ذلك؟ وما الرابط؟ ولماذا أهدف في النهاية؟ لقد سألت نفسي كل تلك الأسئلة لكني سرعان ما وجدت الإجابة وأدركت السبب، فالعبد لله ابن شحات إذ يبدو أن هناك جينات تكتسب ثم تورث بعد ذلك من بينها جينات الشحاتة والتسول كما هو الحال بالنسبة لك وردتي الغالية، فهناك جينات اكتسبها والدك ثم ورثتِها أنت، ولذلك أنت أكثر اهتمامًا بكل الناس ولكن بأطفال الشوارع اهتمامك هو الأكبر.

ويواصل زبادي قائلاً: ربما يكون كلامي هذا غير دقيق وربما لا علاقة له بعلم أو بمعرفة أو أبحاث، لكنه واقع نشعر به ونعيش فيه، وأريد أن أنوه قارئي العزيز أن هذا هو التفسير الذي لا أؤيده كما ذكرت آنفا.

فترد وردة قائلة: إن والدك رحمة الله عليه لم يكن شحاتا بل دُفع إلى التسول دفعًا وأجبر عليه، إنها الظروف التي ساقته إلى ذلك المصير وجعلت منه متسولا وشحاتا، لكن بالنسبة لوالدي ما علاقته بأطفال الشوارع وقد كان المسكين رحمة الله عليه بوابًا؟

فيرد زبادي قائلاً: علينا أن لا نهرب من حقيقة واقعنا، فبالنسبة لوالدي لا يحتاج الموضوع لشرح أو توضيح،

أما والدك فقد كان رحمة الله عليه بوابًا، والبواب تحتم عليه مهنته وظروف عمله أن يجلس طوال اليوم أمام عقاره الذي يعمل به طوال اليوم على كرسيه أو دكته كما هو الحال مع بواب عمارتنا الآن، فالبواب دومًا أمامه الشارع يرقبه وينظره وخلفه في أغلب الأحيان عقاره المسئول عن حراسته وخدمة ساكنيه، لذا لابد لمن يرنو ببصره طوال يومه إلى الشوارع أن يشغله أبناؤها دونا عن غيرهم، لذا لا عجب أن تهتم ابنته وردة بما اهتم به أبوها رحمة الله عليه. وأنا لم تشغلني الشحاتة والتسول لأني أكثر منك فراسة في هذا الموضوع ولدي المقدرة على إيجاد الحلول وفك الطلاسم، أبدًا لم يكن ذلك ولكن لأني ابن شحات وكذلك أنت لم يشغلك

أولاد الشوارع لأنك أكثر مني نباهة وذكاء وحرصًا على هؤلاء المساكين، ولكن الفضل كل الفضل لوالدك البواب.

وعندها تقول وردة: انت زي مانت يا زبادي دايما تخلط الجد بالهزار!! ياللا مع بعض نقرا الفاتحة للشحات والبواب رحمة الله عليهما.

وبعد أن قرآ الفاتحة معًا على روح والديهما تحدث زبادي جادا إلى وردة قائلاً: لابد من انتهاج الأسلوب البحثي والعلمي في مواجهة أية مشكلات وأيًا كان حجمها، فالتخصص جد مطلوب ولم يكن أبدًا رفاهية أو كماليات، وكفانا عشوائية في كل أمورنا الحياتية الثقافية منها والرياضية، ناهيك عن الاجتماعية والبحثية والتطبيقية وغيرها.

ففي الثقافة مثلا لم يعد لدينا الآن محفوظ ولا الحكيم كما أصبح من الأحلام أن ترى عقادًا جديدًا أو إدريس أو عبد القدوس، كما أصبح من الصعب جدا أن يولد طه حسين آخر ويتحفنا بكتاباته حتى لو كان من المبصرين. ولك أن تترحم على أيام أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وأم كلثوم والسنباطي وعبد الوهاب وأمل دنقل وصلاح جاهين وأخيرًا الأبنودي ونجم.

وذلك كله مرجعه العشوائية والارتجال في كل أمورنا الحياتية، والتخبط المستمر في رؤيتنا ورؤانا ونظرتنا السطحية المتدنية لكافة الأمور، وهلمّ جرا في كل المجالات.

ففي المجال الرياضي وعلى سبيل المثال لا الحصر لا يوجد نظام وأسس علمية يتم اتباعها والسير على نهجها من أجل إيجاد قاعدة عريضة من الشباب المؤهلين ليكونوا أبطالا وتوفير الظروف المناسبة لهم من الناحية المادية والنفسية والتأهلية.

فقد نحصل على ميدالية في دورة أوليمبية برونزية مثلا وقد تكون فضية وربما ذهبية، لكني أعتبرها ميدالية عشوائية قد تلعب الصدف والأقدار في الحصول عليها دورها، وربما يحصل عليها البطل بجهوده الخاصة وسعيه الدؤوب وإرادته القوية، لكننا وفي كلتا الحالتين نرى تجسيما للعشوائية والغوغائية، لذا لابد من الاهتمام وبالعلم ولا غيره، فإعداد البطل الأوليمبي علم له أصوله وحيثياته من أول وضع الخطة المناسبة وإنشاء أكاديميات للتدريب، ولا مانع من ابتعاث هؤلاء الأبطال أو من نأمل فيهم أن يكونوا كذلك إلى الخارج إذا كان من الضروري ذلك، وبالتالي وبعد انتهاء سنوات الخطة الموضوعة مسبقا سوف نرى أبطالا وفي كل اللعبات يحصدون الذهب والفضة، لا أن نخطف برونزية أحادية أو حتى ذهبية قد تأتي عشوائيا كما أشرنا، وعندها تقوم الدنيا ولا تقعد وتستمر الأفراح والليالي الملاح، ويخرج من يبشرنا بأنه في الدورة القادمة والتي يتم الاستعداد لها من الآن وعلى قدم وساق سنحصد العديد من الميداليات بمختلف أنواعها، وبالطبع لا ينسى المبشر ولا يفوته أبدًا الإشادة بالاتحاد الفلاني والشخص العلاني لجهودهم المضنية والتي بذلوها رغم الظروف وضيق ذات اليد في

الحصول على ست الحسن والجمال الميدالية العشوائية، ثم تأتي الدورة الجديدة ونجد أيضًا الميدالية العشوائية وقد لا تأتي ونحصد الصفر كما اعتدنا حصاده وسوف يفهم مقصدي لاحقا، وعندها تبحث عن الرجل الذي بشرنا منذ أربع سنوات خلت فلا تجد له أثرًا وكأنه كما يقولون فص ملح وذاب، وكذلك يختبئ حتى حين كل من أشاد بهم فص الملح الذي ذاب، لكن المفاجأة أن يخرج علينا آخر جديد يبشرنا وهكذا دواليك وربما لا أدري من هو دواليك هذا لكني أعلم جيدًا من الذي بشرنا أو فص الملح وكذلك من أشاد بهم قبل أربع سنوات خلت.

حتى كرة القدم أصبحت الآن علمًا يتم تدريسه في أكاديميات متخصصة ولم تكن يومًا كما هو الحال عندنا فكاكة وفهلوة وتعصبًا أعمى تغذيه أبواق يسمونها إعلامية تبث على مدار اليوم فبركات وغوغائية وتتحفنا بتشنجات مذيعيها وتلعب على عواطف البسطاء وتطمس في الهوية.

مع أن كرة القدم هي اللعبة الشعبية الأولى في العالم، والتي من الممكن أن تصبح مصدرًا من مصادر الدخل القومي كما في بعض دول أمريكا اللاتينية كالبرازيل والأرجنتين والأرجواي والبارجواي وشيلي وكلومبيا، حتى في بعض الدول الأفريقية كالكوت ديفوار ونيجريا وغانا حتى الجابون وجزر القمر وموريتانيا، تلك الدول التي لم تعرف كرة القدم إلا من ساعات قليلة،

فهل سنظل نعيش باكين على اللبن المسكوب؟ وإن كنت أتساءل لماذا نبكي وعلى أي مسكوب ومن الجائز، ولربما يكون بكاؤنا على تاريخ ولى ومضى، وإن كنت لا أظن أن لنا تاريخًا في كرة القدم على المستوى العالمي ولن يكون طالما نحن مازلنا ندفن رؤوسنا في الرمال ونسبح سعداء في بحور العشوائية والارتجال والفهلوة، اللهم إلا الصفر المونديالي والذي تعرينا بسببه أمام العالم كله، والذي أظهر جرم وفداحة عشوائيتنا، بالإضافة لجول مجدي عبد الغني والذي صدع صاحبه به رؤوسنا على مدار أكثر من خمسة وعشرين عامًا خلت.

❊ ❊ ❊

ربما يرى البعض أنني قد خرجت عن موضوع الرواية بسبب ما سطرته آنفا من سطور قليلة رغم أني لا أرى ذلك مطلقا، وبالفعل أنا لم أخرج عن سياق حديثي، لكن إن كان بعضهم يرى عكس ذلك فكل رجائي أن لا يلوموا عليّ خروجي فأنا من أبناء هذا الشعب لذا لابد أن تجد بداخلي بعضًا من العشوائية، ومن الجائز أن تصل حتى سطوري فيكون خروجي، لكني أعتقد أن عشوائيتي وفي تلكم المرة إن جاز أن نسميها كذلك هي جد مفيدة وذات مغزى وهدف، وربما هي ما يطلقون عليها العشوائية الحميدة، وأيا كانت مفيدة أو حميدة أو حتى جملات فأنا قد بدأت روايتي بسؤال عن العجل والمعزة وأنهيتها بسؤال عن العجل والصفر، إذ العجل كان في البداية وظل حتى النهاية والفرق بين البداية والنهاية أن في الأولى كان هناك معزة أما في الثانية فلم يكن هناك إلا صفر، فهل مازال هناك من يلوم عليّ خروجي؟ وربما يسألني البعض لماذا بدأنا بابن المعزة وانتهينا بالصفر المونديالي ويأمل مني توضيحًا أو تفسيرًا لتلك العلاقة؟ وأنا أرد وأقول إن العلاقة واضحة جلية لأنه من المؤكد أن كثيرين سوف يشككون في كون المعزة تستطيع أن تلد العجل، ومعهم كل الحق، لكن لا يوجد مطلقا من يشك ولو للحظة أننا قد حصلنا وبجدارة على الصفر، كما أن الورداني نظير ما اقترفت يداه من ظلم وبغي قد تم عقابه ونال جزاءه حتى وإن كان عقابًا ربانيًا لايد لنا فيه، لكن أصحاب الصفر وما فعلوه بنا من جرم وإجرام والذي يفوق ما فعله الورداني بكثير قد مرت جريمتهم مرور الكرام لا جزاء ولا عقاب، بل إمعانا في الكيد لنا قد شاهدناهم مرارًا

وتكرارًا وبأم أعيننا يكرمون جميعًا بلا استثناء وفي مناسبات ومحافل عدة، لذا ما علينا نحن أبناء الشعب إلا أن ندعو عليهم ومن ثم ننتظر العقاب الرباني كما حدث مع الورداني.

وبالرغم من أن الأصفار لدينا عديدة وكثيرة قبل الصفر المقصود وبعده وفي كل المكانات وفي مختلف المجالات وعبر كل الأزمان، لكن والحق يقال يبقى صفر العار والخزي ليس كغيره من الأصفار ومهما جئنا به يمينا أو يسارًا تبقى له دومًا مكانته وكينونته صفرًا كبيرًا، فالمذكور وللأسف لم يكن بجانبه أية أرقام حصلنا عليها وتلك هي الحقيقة المرة، لذا هو في اليمين كما هو في اليسار صفرًا لا يضاهيه أية أصفار أخرى، لكني وكل ما أخشاه أن يطل علينا يوميًا ويظل يذكرنا بنفسه دومًا وعالميته وعبقريته مرارًا وتكرارًا بسبب تفرده وتميزه عن غيره من الأصفار، لكني في ذات الوقت أشفق عليه كثيرًا وأخشى أن يأتي يوم عليه نمل فيه سماعه ونكره منه حتى كلامه بسبب تكرار ظهوره وحديثه عن نفسه، تمامًا كما مللنا الهدف المونديالي الوحيد. وفي النهاية أريد أن أسأل سؤالا لطالما كان سببا في كل حيرتي ومعاناتي وأرقني كثيرًا لدرجة أن زارني في كل أحلامي وجاءني مرات عدة في البعض من مناماتي، وأرجو وأتمنى أن تكون إجاباتك عليه بعد أن تأخذ وقتا كافيًا تكون فيه قد قدحت زناد فكرك قدحًا، لأن بعضهم قد يجاملني ويقول كم هي صعبة ملتوية كل أسئلتي وتساؤلاتي وأنا بكل تأكيد مني لا أتعجل منك ردك وجوابك، وأزيدك من الشعر بيتا ربما قد يساعدك إن كان حقا سيكون صعبًا سؤالي وهو أن قصة معزة

الورداني والعجل كانت كل أحداثها ومشاهدها أمام أهل القرية والقرية فقط وبالرغم من أن الورداني كان صفرًا كما أسلفنا ازدادت أهميته وزاد جبروته وقسوته عندما وضعه أهل بلدته بخوفهم وخنوعهم يمينا، وضاعت هيبته وكانت نهايته عندما أعادوه إلى مكانه الطبيعي يسارًا بإرادتهم وشجاعاتهم وبوأدهم خوفهم داخلهم، أما حكاية صفرنا المونديالي فكانت أمام الجميع وقد رآها العالم أجمع حتى وإن أضحى العالم كله وبفضل وسائل الإعلام المنتشرة والمتعددة والميديا الحديثة والمتمددة هنا وهناك قرية صغيرة، لكنها تبقى قطعًا أكبر من قرية الورداني.

وبعد كل هذا التقديم والذي أعتقد أنه كان فيه شيء من التفخيم والاسترسال وقبل أن يمر ويتسرب مني كل وقتي وقبل أن تتوه من بين يدي كلماتي أو تزوغ وتفر كل أدوات استفهامي وعلامات ترقيمي أظن أنه قد آن الأوان ولابد أن أسأل سؤالي الذي أعنيه وأقصده وهو: أيهما يدهشك وإن شئت قل أيهما يزعجك أكثر؟ أن تلد معزة الطاغية الورداني بكل طاغوته وجبروته وسطوته عجلا؟ أو أن تلد بلدًا بكاملها وبكل تاريخها وحضارتها ومجدها وعظمتها صفرًا؟

وذاك السؤال أراه مسك الختام لروايتي وإلى اللقاء في رويات قادمة بإذن الله تعالى.

د. فضل مسعود

تمت

* * *

الإسكندرية ج . م . ع

(+٢) ٠١٠١٨٨٣١٣٦١

(+٢) ٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧

حسناء للنشر والتوزيع